كتاب العصا

تصنيف

الأمير الفارس والأديب المؤرخ

أبى المظفر أسامة بن منقذ

المتوفى 584 هـ

تحقيق

محمد بن يوسف القاضى

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة

البريد الإلكتروني:
Alsakafa_aldinaya@hotmail.com
هاتف : 2025922620+

فاكس: 2025936277+

فهرست الهيئة المصرية العامة

لدار الكتب والوثائق القومية:

كتاب العصا

تأليف: ابي المظفر اسامة بن منقذ

1- التاريخ الاسلامي

ا- العنوان

رقم الإيداع: 2019/9682

الترقيم الدولي:978-977-341-745-1

كِتَابُ الْعَصَا

تَصْنِيفُ

الأمير الفارس والأديب المؤرخ

أبي المظفر أسامة بن منقذ

المتوفى ٥٨٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وكفى به ولياً حميداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشأنه وتمجيداً، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، نبي شرح الله صدره ورفع ذكره ووضع وزره وأعلى في العالمين قدره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، بعثه الله بالهدى ودين الحق فأشاد صرح العقيدة، وأرسى قواعد الملة، وأكمل الله به الدين وأتم به النعمة، فالخير ما جاء به، والدين ما شرعه، والحق ما التزمه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه خير هذه الأمة وأطوعها له وأحبها لرسوله عليه الصلاة والسلام، وأكثرها اتباعاً له، فرضي الله عنهم وأرضاهم ومن لزم هديهم ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

من الشخصيات التي جَنى عليها المؤرخون والدارسون شخصية الأمير القائد البطل أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية الذي أفنى عمره الذي قارب المائة عام في الدفاع عن الإسلام، وخاض غمار المعارك الطاحنة ضد الصليبيين، وأبدى فيها من الشجاعة والبسالة ما أذهل العقول وحيّر الألباب، حتى قال عنه المقدسي: (إنه كان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها)، وقال عنه الذهبي في تاريخ الإسلام: (أحد أبطال الإسلام، ورئيس الشعراء الأعلام).

وقد دلت جميع أقوال المؤرخين على مكانة أسامة بن منقذ العظيمة في التاريخ الإسلامي وأفاض الكتاب بما تتمتع به شخصيته الفذة من صفات نادرة ومزايا كريمة وأخلاق ونبل، وقد أجمعت كل المصادر على أنه من أبطال الإسلام ومن أفذاذ الرجال مروءة وكرماً وحلماً وعلماً وشجاعة.

فقد قال عنه عماد الدين الأصفهاني: (هذا أسامة من الأمراء الفضلاء، والكرماء الكبراء، والسادة القادة العظماء، وهو من المعدودين من شجعان الشام وفرسان الإسلام).

وقال عنه أيضاً: (أسامة كإسمه في قوة نثره ونظمه، يلوح من كلامه إمارة الإمارة ويؤسس بيت قريضه عمارة العبارة، ونشِر له علم العلم، ورقي سلم السلم، ولزم طريقه السلامة، وتنكب سبل الملامة ندي الندي بماء الفكاهة، عالي النجم في سماء النباهة، معتدل التصاريف، مطبوع التصانيف، كنت أتمنى أبداً لقياه وأشيم على البعد حياه حتى لقيته في صفر سنة إحدى وسبعين وخمسمائة .....).

وقال أيضاً وهو يتحدث عن بني منقذ عشيرة أسامة: (ولم تزل بنو منقذ ملاك شيزر، وقد جمعوا السيادة والمفخر، وكلهم من الأجواد الأمجاد وما فيهم إلا ذو فضل وبذل، وإحسان وعدل ..... وهذا أسامة أعرقهم في الحسب وأعرفهم بالأدب).

وقال عنه الذهبي في تاريخ الإسلام: (أسامة أحد أبطال الإسلام ورئيس الشعراء الأعلام).

وقال عنه أيضاً في تذكرة الحفاظ: (حامل لواء الأبطال، وشاعر الشام).

وقال عنه ابن العماد الحنبلي: (وكان من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم، له تصانيف عديدة في فنون الأدب والأخبار والنظم).

وقال ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) في ترجمة أسامة في حوادث سنة (٥٨٤هـ): (مولده بشيزر في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وكانت له اليد الطولى في الأدب والكتابة والشعر، وكان فارساً شجاعاً عاقلاً مديراً كان يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب الجاهلية وطاف البلاد ....).

وقال عنه ابن عساكر في تاريخ الشام: (اجتمعت به بدمشق وأنشدني قصائد من شعره).

وقال عنه محمد بن الحسن الملحي: (إن الأمير أسامة شاعر أهل الدهر، مالك عنان النظم والنثر، متصرف في معانيه، لاحق بطبقة أبيه، ليس يستقصى وصفه بمعان، ولا يعبر عنها بلسان، فقصائده الطوال لا يفرق بينها وبين شعر ابن الوليد، ولا ينكر على منشدها نسبتها إلى لبيد، وهي على طرف لسانه، بحسن بيانه، غير محتفل بطولها، ولا

يتعثر لفظه في شيء من فضولها، وأما المقطعات فأحلى من الشهد، وألذ من النوم بعد طول السهد، في كل معنى غريب، وشرح عجيب، وقد سمع منه الكبراء والأجلاء منهم: الحافظ أبو سعيد السمعاني والحافظ ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق والعماد الكاتب الأصفهاني كاتب الإنشاء لدى صلاح الدين الأيوبي).

وقال عنه ابن خلكان في وفيات الأعيان: (من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم له تصانيف عديدة في فنون الأدب ذكره أبو البركات ابن المستوفي في تاريخ أربل وأثنى عليه، وعده في جملة من ورد عليه وأورد مقاطع من شعره).

وقال عنه ياقوت الحموي في معجم الأدباء: (وفي بني منقذ جماعة أمراء شعراء، لكن أسامة أشعرهم وأشهرهم).

وقد زار قبر أسامة المؤرخ ابن خلكان على سفح جبل قاسيون ووصف زيارته للقبر بقوله: (ودخلت تربته وهي على جانب نهر يزيد الشمال وقرأت عنده شيئاً من القرآن وترحمت عليه)

ونكتفي بهذه الأقوال للمؤرخين القدماء وبعضهم كان من معاصري أسامة وقد أجمعت هذه الأقوال على الثناء عليه.

ولإتمام الفائدة سنستعرض أقوال المؤرخين والدارسين المحدثين الذين درسوا سيرته بعين العدل والإنصاف.

فيقول عنه عباس محمود العقاد: (أسامة بطل كبير من أبطال الحروب الصليبية، وفارس كاتب مبرز في ميدان السيف وميدان القلم، مؤرخ لعصره، يقل نظراؤه في الصدق والفطنة وحسن البيان، ويندر بين العصور عصر عرفناه بكتابة أبنائه كما عرفنا العصر الأخير من الصليبيين بكتابة هذا الفارس المجلي وهذا الكاتب المبين ذلك هو أسامة بن منقذ فارس المعقل المسمى بعرف الديك ومن حق هذا المعقل أن يسمى بلبد الأسد).

ويقول عنه يوسف الشاروني: (صاحب ملوك الإسلام، وسالم الصليبيين وقت السلم، وقاتلهم وقت الحرب، كما قاتل غيرهم من العرب، ثم دون كل خبراته في

مذكرات شيقة رائعة يسودها التواضع الجم، فنصدق انتصاره حين يذكره لأنه يذكر عدم انتصاره حين تقابله الهزيمة).

وقال عنه المؤرخ الدكتور فيليب حتي: (عاش أسامة شهماً فارساً، ولمع أديباً وشاعراً).

وقال عنه الأستاذ أحمد محمد شاكر: (ربّاه أبوه على الشجاعة والفتوة والرجولة، ومرنه على الفروسية والقتال، فأخرج منه فارساً كاملاً وسياسياً ماهراً ورجلاً ثابتاً كالرواسي لا تزعزعه الأعاصير ولا تهوله النكبات والرزايا).

وقال عنه السيد جمال الدين الآلوسي في كتابه (أسامة بن منقذ .. بطل الحروب الصليبية) (ص٢٣): (كان الأمير أسامة يرد غارات الإفرنج عن شيزر ويخف لفك الحصار عن القلاع الإسلامية، ويتطوّع في جيوش الأمراء الذين ندبوا أنفسهم لحرب الصليبيين).

هذه بعض أقوال الكتاب المحدثين قطفناها من أقوالهم الكثيرة التي أثنت على أسامة تُضاف إلى أقوال المؤرخين القدماء عن أسامة والتي أجمعت على أنه أحد أبطال الإسلام المعدودين.

ومن مؤلفاته اللطيفة كتاب "العصا"، ولا نعرف في التاريخ كتاباً شَغَلَ مؤلِّفَهُ، كما شَغَل كتاب "العصا" أسامة ابن منقذ. فقد ظلَّ أسامة متعلّقاً بموضوع كتابه نحو ستين عاماً.

ويشير أسامة في مقدمة الكتاب إلى السبب الذي حدا به إلى تأليفه، فيذكرُ أنه سمع من والده-وهو صغير-أنه توجه إلى خدمة السلطان ملك شاه بأصفهان، فزارٌ الشيخ العالِمْ أبا يوسف القزويني عندما اجتاز بغداد. وكان معه علي بن البوين-الشاعر النحوي-وهو كاتب سديد الملك جَدّ أسامة.

وكان الشيخ أبو يوسف القزويني لضعفِهِ وكِبَره قد استند بين الجالس والمستلقي إلى فراشٍ له، وحولَهُ كتبٌ كثيرةٌ، فمَدَّ ابن البوين يده إلى أحدهما، فنهره الشيخ قائلاً: "يَدخلُ الجاهلُ على الإنسانِ؛ فَينبسطُ ويقرأُ ما عنده من الكتبِ-أي أني من أهلِ العِلم- ما أحوجك ما يكون في يدك فوقها". فألقى ابن البوين الكتاب من يدِه، وكان.. كتاب "العصا". فاشتدَّت عند أُسامة الرغبة في اقتناء هذا الكتاب، فظلّ ستين عاماً يبحثُ عنه

في كلّ مكان، ويَسأل عنه كلّ إنسان، فلم يُوفّق إلى الاهتداء إليه، ولم يَقِف على مَنْ وقَع بصره عليه؛ فدفعهُ اليأس إلى تأليفِ كتابهِ.

وقد حاولنا جاهدين إخراج هذه الدرة البديعة في أبهى صورة، وندعو من الله التوفيق.

وصلَّى الله وسلم على سيّد البلغاء من الناس مُحمّدِ بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يَوْم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

الأمير الفارس والأديب البارع
أسامة بن منقذ

اسمه ونسبه:

هو أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري الملق بمؤيد الدولة[١] وكذلك عز الدين أسامة. هو فارس ومؤرخ وشاعر، وأحد قادة صلاح الدين الأيوبي، باني "قلعة عجلون".

مولده ونشأته:

ولد بقلعة شيزر في ٢٧ جمادى الثانية سنة ٤٨٨هـ[٢].

ولد بشيزر ونشأ بها وأخرجه عمه أبو العساكر سلطان بن علي خوفاً منه على نفسه، لما رأى من شجاعته وإقدامه، وقدم حلب مراراً متعددة، وكان من الأمراء الفضلاء الأدباء الشعراء الشجعان الفرسان، له مصنفات عديدة ومجاميع مفيدة، ومواقف مشهورة، ووقائع مذكورة، وفضائل مستورة[٣].

قال العماد الكاتب في "الخريدة" بعد الثناء عليه: سكن دمشق ثم نبت به كما تنبو الدار بالكريم، فانتقل إلى مصر فبقي بها مؤمراً مشاراً إليه بالتعظيم إلى أيام الصالح بن رزيك. ثم عاد إلى الشام وسكن دمشق، ثم رماه الزمان إلى حصن كيفا، فأقام به حتى ملك السلطان صلاح الدين - رحمه الله تعالى - دمشق، فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين[٤].

جهاده وحصار قلعة حارم:

جمع نور الدين بن محمود بن آقسنقر، صاحب الشام، العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم، وهي للفرنج غربي حلب، فحصرها وجد في قتالها، فامتنعت عليه بحصانتها، وكثرة من بها من فرسان الفرنج ورجالتهم وشجعانهم، فلما علم الفرنج ذلك جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد، وحشدوا، واستعدوا، وساروا نحوها ليرحلوه

---

(١) انظر: وفيات الأعيان ١/١٩٥.

(٢) انظر: معجم المؤلفين ٢/٢٢٥.

(٣) انظر: بغية الطلب في تاريخ حلب ١/٤٧٨.

(٤) انظر: وفيات الأعيان ١/١٩٦.

عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصاف، فلم يجيبوه إليه، وراسلوه، وتلطفوا الحال معه، فلما رأى أنه لا يمكنه أخذ الحصن، ولا يجيبونه إلى المصاف، عاد إلى بلاده وممن كان معه في هذه الغزوة مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني، وكان من الشجاعة في الغاية، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد شيزر، وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحج، فلما دخله الآن كتب على حائطه[1]:

لك الحمد يا مولاي كم لك منة ... علي وفضلاً لا يحيط به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلاً ... من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي ... مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فأديت مفروضي وأسقطت ثقل ما ... تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري

من كلماته:

يقول الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ، لمّا لقى الفرنج في أرض بصرى وصرخد مع نور الدين، وقد تقدم ذلك كتب إليه قصيدة يقول فيها[2]:

كل يوم فتح مبين ونصر ... واعتلاء على الأعادي وقهر
صدق النعت فيك أنت معين ... الدين، إن النعوت قال وزجر
أنت سيف الإسلام حقا، فلا كَل ... غراريك أيها السّيفُ دهر
لم تَزل تُضمر الجهاد مُسِرًّا ... ثم أعلنت حين أمكن جهر

أقوال العلماء فيه:

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: "كان بطلاً شجاعاً، جواداً، فاضلاً"[3].

قال أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني الإمام: أسامة بن مرشد أمير فاضل غزير الفضل، وافر العقل، حسن التدبير، مليح التصانيف، عارف باللغة والأدب، مجود في صنعة الشعر، من بيت الإمارة والفروسية واللغة، سكن دمشق، لقيته

(١) انظر: الكامل في التاريخ ٥٨/٥: ٥٦.

(٢) انظر: الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية ٧٣/١.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء ٥٥٣/١٨.

بالفوار بظاهر دمشق بحوران، واجتمعت معه بدمشق عدة نوب، وكان مليح المجالسة حسن المحاورة[١].

قال الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن، قال: أسامة بن مرشد الملقب بمؤيد الدولة، له يد بيضاء في الأدب والكتابة والشعر، ذكر لي أنه ولد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وقدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وخدم بها السلطان، وقرب منه وكان شجاعاً فارساً، ثم خرج إلى مصر، فأقام بها مدة، ثم رجع إلى الشام، وسكن حماة، واجتمعت به بدمشق، وأنشدني قصائد من شعره سنة ثمان وخمسين وخمسمائة.

وقال عنه الأصبهاني في كتاب خريدة القصر وجريدة العصر: أسامة كإسمه في قوة نثره ونظمه، يلوح من كلامه أمارة الإمارة، ويؤسس بيت قريضه عمارة العبارة، نشر له علم العلم، ورقي سلم السلم، ولزم طريق السلامة وتنكب سبل الملالة والملامة، واشتغل بنفسه، ومجاورة أبناء جنسه، حلو المجالسة حالي المساجلة، ندي الندى بماء الفكاهة، عالي النجم في سماء النباهة، معتدل التصاريف، مطبوع التصانيف[٢].

كان في شبيبته شهما شجاعا، قتل الأسد وحده مواجهة[٣].

مؤلفاته:

١- كتاب الشيب والشباب.

٢- ذيل يتيمة الدهر (للثعالبي).

٣- كتاب تاريخ أيامه.

٤- كتاب أخبار أهله.

٥- كتاب الاعتبار: وفيه أملى المؤلف، وهو بعد سن التسعين، ذكرياته ومشاهداته من معارك حربية وأحداث سياسية في مصر والشام، مصوراً الوقائع التي جرت بين العرب والصليبيين، مبيناً طبائعهم وأخلاقهم وعقائدهم، والمعارك التي جرت بين قومه ومن حولهم من حكام، ذاكراً المؤامرات التي جرت في آخر الحكم الفاطمي. ويعدّ كتابه تاريخاً سياسياً واجتماعياً صادقاً للقرن السادس

(١) انظر: بغية الطلب في تاريخ حلب ٤٧٩/١.

(٢) انظر: بغية الطلب في تاريخ حلب ٤٧٨/١.

(٣) انظر: البداية والنهاية ٤٠٥/١٢.

الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وقد كتب بإنشاء عادي بعيد عن التصنع. ويعدّ كتاب الاعتبار ـ وهو أشهر كتب أسامة ـ أول سيرة ذاتية في الآداب العربية، رمى المؤلف من ورائه إلى إبراز فكرة هي: أن ركوب المخاطر في الحرب أو في السلم لا تنقص من الأجل المكتوب. وقد استاق القصص من دون تنظيم منطقي. وامتازت المذكرات بالأمانة في النقل والصدق في الرواية والدقة في الملاحظة، مع الموازنة بين ما جرت عليه تقاليد العرب المسلمين وحياتهم اليومية وبين ما درج عليه الإفرنج الذين أقاموا في البلاد في ذلك العصر.

٦- كتاب البديع في نقد الشعر.

٧- كتاب العصا: وقد أورد فيه شواهد نثرية وشعرية تتحدث عن العصا التي عرفت في التاريخ، وأثبت فيه كذلك كثيراً من شعره.

٨- كتاب المنازل والديار: جمع فيه المؤلف ما تخيّره مما كتب في البكاء على المنازل العافية والأطلال الدارسة، من شعر الجاهليين ومن تلاهم حتى أيامه. وقد حفزه إلى جمعه ما نال بلاده من الخراب، وما أصابها من الزلازل التي أبادت أسرته. وقد حفظ في هذا الكتاب كثيراً من أمهات الشواهد الشعرية.

٩- لباب الآداب: وقد ألفه أسامة وهو ابن إحدى وتسعين سنة، كما ذكر في آخر الكتاب.

١٠- كتاب القضاء.

١١- تلخيص مناقب العمرين لابن الجوزي.

١٢- وله مجموع اسمه لاميّة الأدب (فيه: كتاب الوصايا، كتاب السياسة، كتاب الكرم و إطعام الطعام، كتاب الشجاعة، كتاب الأدب، كتاب البلاغة).

١٣- كتاب ألفاظ من الحكمة في معان شتّى.

١٤- وله مجموع من شعره اختاره بنفسه.

وفاته:

عمر إلى أن توفي ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان، ودفن شرقي جبل قاسيون.

مصادر الترجمة:

ابن عساكر ٢: ٤٠٠ ، والبداية والنهاية ١٢: ٣٣١ ، وابن خلكان ١: ٦٣ ، وفيليب حتى، في مجلة الكشاف ٤: ٤٧٣ - ٥٠٢ ، وآداب اللغة ٣: ٦١ ، والنعيمي ١: ٣٨٤ ومعجم الأدباء، طبعة دار المأمون ٥: ١٨٨ - ٢٤٥ ، والفهرس التمهيدي ٢٦٠ و ٣٠٢ وفي دائرة المعارف الإسلامية ٢: ٧٩ أنه في أثناء عودته من مصر إلى دمشق فقد مكتبته وكانت تربى على أربعة آلاف مخطوط. وفي مجلة الكتاب ٣: ٥٠٦ كلمة عن ديوانه. وخريدة القصر، شعراء الشام ١: ٤٩٨.

ذكر العصا
في القرآن والسنة وأقوال العرب

العصا لغة واصطلاحاً:

وردت لفظة (العصا) في المعاجم العربية على أنها الـ(عَصا)، (اسم) مصدر عصي، الجمع: عِصِيٌّ وأعص وأعصاء ومثنَّاهُ:عَصَوان والعَصَا: ما يُتَّخذُ من خشب وغيرِه للتوَكُّؤ أَو الضَرْب، ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧]، وقيل إجتماع وإئتلاف أو جماعة أو لسان أو عظم الساق أو الجناح.

والعَصَا من العُصيَّة: وصف للأمر الصَّغير يتولَّد منه الأمر الكبير، قال بن دريد، إنما سميت العصا عصا لصلابتها مأخوذة من قولهم: عص الشيء وعَصَا وعَسَا إذا صلب.

العصا في القرآن الكريم:

وقد ورد لفظ (العصا) في القرآن في ١٢ آية، ولم تأتي ألا مرة واحدة بلفظ (منسأته)، أما الآيات التي ذكرت فيها هذه اللفظة فهي:

- قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [البقرة:٦٠].
- وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧].
- وقوله تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[الأعراف: ١١٧].
- وقوله تعالى: ﴿قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].
- وقوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٨].
- وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ [الشعراء: ٣٢].
- وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الشعراء:٤٥].
- وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣].

- وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠].
- وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [القصص: ٣١].
- وقوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].
- وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

أسماء العصا وأنواعها:

- الأكليز – الأكليز هو عصا تشتمل على سير من الجلد يستخدم بغرض استعادة العصا مرة أخرى باليد بعد ضرب الخصم بها.
- العود.
- الصَّوْلَجَانُ: عصا يعطف طرفها، تضرب بها الكرة على الدواب.
- القسقاسة.
- المقذعة - المِقْدَعَةُ: عصاً يَقْدَعُ ويدافع الإنسان بها عن نفسه .

"بالهَمْزِمن طُولِ الثِّقَافِ وجارُهُمْ يُعطِي الظُّلامَةَ في الخُطُوبِ الحُوَّسِ"

- النفعة.
- المخبط.
- الموبل - المِيْبَلُ: قال ابنُ جنيّ: مِيْبَلُ مِفْعَلُ، من الوبيل تقول العرب: رأيت وَبِيلا على وَبِيلٍ؛ أي شيخاً على عصا، وجمعُ المِيبَلِ: مَوَابِلُ؛ عادتِ الواوُ لزوالِ الكسرةِ، والوبيل- الوبيلة: القضيبُ الذي فيه لينٌ، وبه فَسَّرَ ثعلبُ قول الراجز: إما تَرَيني كالوَبِيلِ الغضيل.
- المِخْرَشُ والمِخْرَاشُ أيضاً: عصاً معوجةُ الرأسِ كالصولجان، ومنه الحديث: ضرب رأسه بمخرش، وخَرَشَ الغُصْنَ وخَرَّشَهُ: ضربه بالمِحْجَنِ يجتذبه إليه.
- المتيخة - المِتْيَخَةُ: ومن قال مِتّيخَةٌ فهو فعيلةٌ من مَتَخَ، وقيل: المِتْيَخَةُ: هي اسم للعصا وقيل: للقضيب الدقيق اللين، وقيل: كل ما ضرب به من جريدأو عصا أو درَّة وغير ذلك.
- السِّلاحُ: والعصا تسمى سلاحاً، ومنه قول ابن أحمر:

"ولســـت بعرنـــةعرك ســـلاحي عصـــا مثقوبـــة تقـــص الحمـــارا"

- الوقام.
- الهادية.
- العتلة.
- المعفجة – المعفاج.

- المِهْمَزَةُ: المَهَامِزُ: عِصِيٌّ، واحدَتُهَا: مِهْمَزَةٌ، وهي عصاً في رأسِهَا حديدةٌ يُنخَسُ بِهَا الحمارُ، قالَ الأخطلُ:

"رهطُ ابنِ أَفْعَلَ في الخطوبِ أذلةٌ دُنْـسُ الثيابِقنـاتُهُمْ لَـمْ تُضْـرَسِ"

- القحرنة.
- النجا.
- المزام.

- المِطْرَقَةُ: أصل الطَرْقِ: الضربُ، ومنه سميت مِطْرَقَةُ الصائغِ والحدادِ؛ لأنه يُطرق بها أي: يضرب بها، وكذلك عصا النَّجَّادِ التي يَضرِبُ بها الصُّوف.

- المِهْزَامُ: عصا قصيرة، وهي المِزْزَامُ، وأنشد:

فشَـامَ فيهـا مثـلَ مِهْـزَامِ العَصَـا

أو الغَضَا ويُروى: مثل مِزْزَامِ .

- القرضوف.
- القشبار.
- القصيد وَالْقَصِيدَة.

- المِقْلَدُ: عصا في رأسها اعوجاج يقلد بها الكلأ؛ كما يقتلد القت إذا جعل حبالاً؛ أي يفتل، والجمع المقاليد .

- المخصرة: أول مَرَاتِب الْعَصَا المِخْصَرَةُ: شيء يأخذه الرجل بيده ليتوكأ عليه؛ مثلُ العصا ونحوها، وهو أيضاً مما يأخذه المَلِكُ يشيرُ به إذا خطبَ، قال:

" يكاد يزيلُ الأرضَ وقع خِطابِهم إذا وصـلوا أيمـانهم بالمخاصـرِ"

واختصرَ الرجلُ: أمسك المخصرة، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم: خرج إلى البقيع وبيده مخصرة له، فجلس فنكت بها في الأرض، قال أبو عبيد: المِخصرةُ ما اختصرَ الإنسانُ بيدِهِ فأمسكه من عصاً أو مِقرَعَةٍ أو عَنَزَةٍ أو عُكَّازَةٍ أو قضيبٍ وما أشبهها، وقد يُتكأ عليه، وفي الحديث: فإذا أسلموا فاسألهم قُضُبَهُمُ الثلاثة التي إذا تخصروا بها سُجِدَ لهم، أي كانوا إذا أمسكوها بأيديهم سَجَد لهم أصحابهم، لأنهم إنما يمسكونها إذا ظهروا للناس، والمخصرةُ كانت من شعار الملوكِ، والجمعُ المخاصرُ، ومنه حديث عليٍ؛ وذَكَرَ عمرَ رضي الله عنهما فقال: واختصر عَنَزَتَهُ، العَنَزَةُ شِبْهُ العُكَّازَةِ .

- الْعَصَا والعصاية والعصاة: إِذا طَالَتْ وَاسْتظْهر بهَا الشَّيْخ وإذا طالت قليلاً واستعان بها الراعي والأعرج والشيخ.

- المنسأة: إِذا استظهر بهَا الْمَرِيض والضعيف وأيضا المنسة - المنساة – المنساء.

- المحجن والمحجنة: عصا معقفة الرأس وإِذا كَانَ فِي طرفها عقافة وهي العصا التي اعوجَّ طرفاها خِلقة في شجرتها كالصولجان، وفي الحديث: أنه كانيستلم الركن بمحجنه.

- هراوة (سلاح): إِذا طَالَتْ.

- القحزنة والمرزبة: إِذا غلظت زِيَادَة على الهراوة.

- العنزة: إِذا زَادَت وفيهَا زج وهي عصا في قدر نصف الرمح أو أكثر شيئًا فيها سنان مثل سنان الرمح وقيل في طرفها الأسفل زج كزج الرمح يتوكأ عليها الشيخ الكبير وقيلهي أطول من العصا وأقصر من الرمح والعكازة قريب منها ومنه الحديث: لما طعن أبي بن خلف بالعنزة بين ثدييه، قال: قتلني ابن أبي كبشة.

- عكاز والعكازة: إِن كَانَ فِيهَا سِنَان صَغِير وأيضا العكوز - العُكَّازَةُ: العَكْزُ الائتمامُ بالشيء والاهتداءُ به، والعُكَّازَةُ عصا في أسفلها زُجٌّ؛ يتوكأ عليهاالرجلُ مشتق من ذلك، والجمعُ: عَكَاكِيزُ وعُكَّازَاتٌ.

- النيزك: إِذا طَالَتْ وسنانها دقيقة.

- حَرْبَة: إِذا زَاد طولهَا وسنانها عريضة.

- القناة والرمح: إذا اجتمع فيها الطول والسنان.

- المِنْجَدَةُ: عصا تساق بها الدواب وتحث على السير وينفش بها الصوف، وفي الحديث: أنه أذن في قطع المنجدة، يعني من شجر الحرم؛ هو من ذلك .

- المِرْبَدُ: رَبَدَ الإبلَ يَرْبِدُهَا رَبْدَاً: حبسها، والمِرْبَدُ محبسها، وقيل هي خشبةٌ أو عصا تعترض صدور الإبل فتمنعها عن الخروج، قال:

"عواصي إلا ما جعلت وراءها عصا مربد تغشى نحورًا وأذرعا"

قيل: يعني بالمربد ههنا عصا جعلها معترضة على الباب تمنع الإبل من الخروج، سماها مربداً، لهذا قال أبو منصور؛ وقد أنكر غيره ما قال: وقال أراد عصا معترضة على باب المربد فأضاف العصا المعترضة إلى المربد ليس أن العصا مربد.

- الجَرَّةِ: من أمثالهم: (هو كالباحثِ عن الجَرَّةِ) قال: وهي عصا تربط إلى حِبَالَةٍ تُغَيَّبُ في الترابِ للظبي يُصطاد بها، فيها وترٌ؛ فإذا دخلتيدُه في الحِبَالَةِ انعقدتِ الأوتارُ في يدهِ، فإذا وثبَ ليفلتَ فمدَّ يدهُ ضربَب تلكَ العصا يدهُ الأخرى ورِجلَهُ فكسرها، فتلك العصا هي الجَرَّة.

- المِرْبَعَةُ: خُشيبة قصيرة يرفع بها العدل يأخذ رجلان بطرفيها فيحملان الحمل ويضعانه على ظهر البعير، وقال الأزهري: هي عصا تُحمل بها الأثقال حتى توضع على ظهر الدواب.

- المِلْوَظُ: عصا يضرب بها أوسَوْطٌ ، أنشد ابن الأعرابي للزفيان:

"أنا أبو المِقْدَامِ عَقَّافَظَّاً بِمَنْ أُعَادِي مِلْطَسَاً مِلَظَّا

أَكُظُّهُ حتى يَمُوتَ كَظَّا ثُمَّتَ أعْلَي رَأْسُ المِلْوَظَّا

صَاعِقَةً مِنْ لَهَبٍ تَلَظَّى"

كذا حكاه ابن الأعرابي، والصحيح المِلْوَظُ وإنما شُدِّدَ ضرورة.

- البَالَةِ: البالُ جمع بَالَةٍ، وهي عصا فيها زُجٌّ تكونُ مع صيادي أهلِ البصرةِ، يقولون: قد أمكنكَ الصيدُ فألق البَالَةَ، وفي حديث المغيرة؛ أنه كره ضرب البالةِ: هي بالتخفيف حديدةٌ يصادُ بها السَّمَكُ، يقال للصياد: ارمِ بها فما خرجَ فهو لي بكذا، وإنما كرهه لأنه غرر ومجهول.

- باسطون: جاءت سوريا مع الأتراك كان يحملها عِليةَ القوم رأسها من المعدن معقوفة بشكل نصف دائري.

- باكور: كلمة تركية هي عصا تتخذ من أشجار مختلفة رأسها معقوف يتوكأ عليها.

- بلطة: عصا بطول ٥٠ سم ركبت في رأسها فأس صغيرة ذات حدين متعاكسين.

- جناية: عصا بطول ٥٠ سم ركبت في رأسها كتلة من القير بشكل كمثري.

- دبوس: عود غليظ طويل يستعمل لخبط أغصان الأشجار لإسقاط الثمر.

- شابوح: عصا طويلة رفيعة تستعمل لخبط أغصان أشجار الفاكهة.

- شبي: عود من الخشب يدخلون في رأسه فأساً أو مجرفة أو مرا أو بلطة.

- شدحة: عود طويل رأسه العلوي ذو شعبتين ترفع به أعمدة الحطب وحبال الغسيل.

- شوليحية: (في مصر وسوريا) عصا طويلة منحنية من طرف واحد من شجرة الطرفا تستعمل في لعبة الحوري.

- عامود : عصا طويلة وغليظة تستعمل في رفع الاخبية وبيوت الشعر وسقف البيوت.

- النبوت والشوما: اسم لعصا مصرية.

- سمى العرب أولادهم ذكوراً وإناثاً بأسماء العصا: (طرفة/طريف) و (غرب/غربة) و(محجن) و (طلحة) و (الخيزران) و (عويد) و (عيدان) و (دبوس) و (خشبة) و(خشاب) و (حطاب).

- وتصنع العصا من عدة أشجار منها الخيزران وعرق السمر وعرق الارطاء وعرق الغاف وجريد النخيل وشجر العتم الذي يعتبر من أقوى أنواع العصي، وأما العصي المصنوعة من الخيزران فتستورد من نيوزلاندا والهند والتي تعتبر من أفضل الأنواع.

العصا ومآربها الأخرى:

قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه:١٧-١٨].

﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ المآرب: جمع مأربة – بتثليث الراء – بمعنى حاجة. تقول: لا أرَب لى في هذا الشيء، أى: لا حاجة لى فيه.

قال القرطبي في تفسيره: تعرض قوم لتعديد منافع العصا منهم ابن عباس، قال:

– إذا انتهيت إلى رأس بئر فقصر الحبل وصلته بالعصا

– وإذا أصابني حر الشمس غرزتها في الأرض وألقيت عليها ما يظلني.

– وإذا خفت شيئا من هوام الأرض قتلته بها.

– وإذا مشيت ألقيتها على عاتقي وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلاة.

– وأقاتل بها السباع عن الغنم.

وقال الحسن البصري: أن العصا فيها ست خصال:

١- سنة للأنبياء.

٢- وزينة الصلحاء.

٣- وسلاح على الأعداء.

٤- وعون للضعفاء.

٥- وغم المنافقين.

٦- وزيادة في الطاعات.

ويقال: إذا كان مع المؤمن العصا:

– يهرب منه الشيطان

– ويخشع منه المنافق والفاجر

– وتكون قبلته إذا صلى

– وقوة إذا أعيا

ولقي الحجاج بن يوسف أعرابيًا فقال: من أين أقبلت يا أعرابي؟

قال: من البادية.

قال: وما في يدك؟

قال: عصاي:

– أركزها لصلاتي

– وأعدها لعداتي

– وأسوق بها دابتي

– وأقوى بها على سفري

– وأعتمد بها في مشيتي لتتسع خطوتي
– وأثب بها النهر
– وتؤمنني من العثر
– وألقي عليها كسائي فيقيني الحر، ويدفئني من القر
– وتدني إلي ما بعد مني
– وهي محمل سفرتي
– وعلاقة إداوتي
– وأقرع بها الأبواب
– وأتقي بها عقور الكلاب
– وتنوب عن الرمح في الطعان
– وعن السيف عند منازلة الأقران
– ورثتها عن أبي، وأورثها بعدي ابني
– وأهش بها على غنمي
– ولي فيها مآرب أخرى، كثيرة لا تحصى.

وقيل استعملت العصا لغرض:

ـ حماية صاحبها في الترحال خاصة إذا ما سرى بالليل
ـ قياس المسافات
ـ قيادة وتأديب المطية
ـ طرق الأبواب
ـ السيطرة على قطعان الإبل والأغنام.

أما في الشريعة الإسلامية:

– أنها تتخذ قبلة في الصحراء، وقد كان للنبي – صل الله عليه وآله وسلم – عنزة تركز له فيصلي إليها.

– وكان إذا خرج يوم العيد أم بالحربة فتوضع بين يديه فيصلي إليها.

وقد ذكر الجاحظ في (البيان والتبيين) فوائد العصا، فمنها: سئل يونس عن قول الله عز وجل: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه:١٨] فقال: لست أعلم جميع مآرب

موسى، ولكني أذكر جملة تدخل في باب الحاجة إليها، ومن ذلك أنها تحمل للحية والعقرب والذئب والفحل الهائج. ويتوكأ عليها الكبير والسقيم والخطيب والأعرج، فتنوب للأعرج عن ساق أخرى وللأعمى عن قائده، وللشرطي والراعي.

العصا في المنام:

ورؤيا العصا في المنام عند ابن سيرين، هي رجل حسيب منيع، فمن رأى: أن بيده عصا فإنه يستعين برجل حسيب فيه نفاق، ويصل إلى مطلبه، ويظفر بعدوه، فإن كانت مجوفة وهو متكئ عليها، فإن ماله يذهب، ومن رأى: إنها انكسرت وكان والياً عزل، وإن كان تاجراً أذهب الله تجارته، ومن رأى: أنه ضرب بها الأرض فإنه يتغلب على صاحب تلك البقعة التي هو واقف عليها، ومن رأى: أنه تحول عصا مات سريعاً ، ومن رأى: أن عصاه انكسرت مرض مرضاً شديداً، ومن رأى: أنه يمشي على عصا فإنه تصميم على ركوب السفينة، ومن رأى: أنه ضرب أحداً بعصا فإنه يبسط عليه لسانه، ومن رأى: أنه ضرب حجراً بعصا فانفجر منه الماء، فإن كان فقيراً استغنى، وإن كان غنياً ازداد غناه.

وذكرت العصا عند النبي صل اللّه عليه وآله وسلم:

ذكر الثقات من أهل العلم فى كثير من المراجع أنه كان للنبى صل الله عليه وآله وسلم أكثر من عصا أو قضيب، وذكر (ابن قيم الجوزية أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان له (محجن) قدر ذراع أو أطول و(مخصرة) تسمى العرجون و (قضيب) من الشوحط (شجر الأرز) يسمى الممشوق، وقيل هو الذى كان يتداوله الخلفاء) زاد المعاد ١٣٢/١.

وعن عطاء قال: (كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا خطب يعتمد على عنز أو عصا) جامع الآحاديث للسيوطى.

وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: (إن أتخذ منبراً فقد اتخذه أبى إبراهيم وإن أتخذ العصا فقد اتخذها أبى إبراهيم) جامع الأحاديث للسيوطى.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما قرعت عصاً على عصاً إلا حزن لها قومٌ، وفرح بها آخرون.

ما قيل من الشعر في العصا:

وذكر الشعراء العرب قديماً وحديثاً في شعرهم العصا:

ما القوس إلاّ عصاً في كفّ صاحبها ترعى بها الضأن أو ترمى بها البقر

قال الأعشى ميمون بن قيس ابن جندل:

وَرَأَت بِـــــأَنَّ الشَـــــيبَ جانَبَـــهُ البَشاشَـــةُ وَالبَشـــارَه

لســـنْاَ نُضَـــارِبُ بالعِصِـــيّ ولا نُقـــــاذِفُ بالحِجَـــــارَه

إلا بِـــــكُلِّ مـــــهَندٍ عَضْـــبٍ مـــن البِـــيض الـــذكارة

قال أوس بن حجر:

لَحَيـنَهُمُ لَحـيَ العَصـا فَطَـرَدنَهُم إِلـى سَـنَةٍ جِرذانُهـا لَـم تَحَلَّـمِ

وقال صالح بن عبد القدوس:

لا تـــــدخلن بِنَميمَـــــة بَـــينَ العَصـــا وَلحائِهـــا

وقال يحيى بن نوفل:

عصا حَكَمٍ في الباب أول داخل ونحن على الأبواب نُقصى ونُحجب

وكانت عصا موسى لفرعون آية وهـذي لعمـر الله أدهـى وأعجـبُ

تطاع فلا تعصى ويحذر أمرها ويرغب في المرضاة منها وتُرهب

وقال ابن سارة:

ولي عصا من طريق الذم أحمدها بهـا أقـدم فـي تأخيرهـا قـدمي

كأنها وهي في كفي أهش بها على ثمانين عاماً لا على غنمي

كـأنني قـوسُ رامٍ وهـي لـي وتـر أرمي عليها سهام الشيب والهرم

وقال ابن رشيق:

ظـن أن الحصـون ملـك سـليمان وليلـــى بجهلـــه بلقيســـا

ولـه فـي العصـا مـآرب أخـرى حـــاش لله أن تكـــون لموســـى

وقال المتنبي:

لا تشـتر العبـد إلا والعصـا معـه إن العبيـــد لأنجـــاس مناكيـــد

وذكرت العرب العصا في أقوالها وأمثالها فقالوا:

ـ (شق فلان عصا المسلمين: إذا خالف ألفتهم، وفرق جماعتهم) والعصا مثل يضرب للجماعة.

ـ (إياك وقتيل العصا)، يريد إياك وأن تكون القتيل في الفتنة التي تفارق فيها الجماعة.

ـ (العَصَا من العُصَيَّة، ولا تلد الحيَّةَ إلا حَيَّةٌ): تريد أن الأمر الكبير يحدث عن الأمر الصغير.

ـ لا ترفع عصاك عن أهلك، كناية عن التأديب.

ـ عصا الجبان أطول. العصا من العصية.

ـ إن العصا قرعت لذي الحلم

ـ لا تدخل بين العصا ولحائها.

ـ لا تكن قاتلاً ومقتولاً في شق عصا المسلمين.

ـ فلانٌ لين العصا، إذا كان رفيقاً حسن المداراة.

ـ العبد يقرع بالعصا والحرّ تكفيه الملامه

ـ فألقت عصاها واستقرت بها النّوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

ـ العصا لمن عصى

أشهر العصي التي ذكرت في التاريخ: روى المنشاوي الورداني عن عصا الحكم ابن عبدل، التي كان يكتب عليها حاجته لدى الملوك، والأمراء، والحكام، ويبعث بها، فلا تؤخر له حاجة، تلك العصا التي ضاق بنفوذها ذرعا أحد الشعراء فقال عنها:

عصا الحكم في الدار أول داخل ونحن على الأبواب نقصى ونحجب

وأشهر عصا في التاريخ عصا نبي الله موسى، التي تعددت الروايات حول أصلها، ومنهم من يعتبرها العصا التي أتى بها آدم من الجنة، ولربما تليها في الشهرة درة عمر بن الخطاب، ويتحدث المصريون عن عصا توت عنخ آمون، المحلاة بالمعادن

الكريمة، والتي نقشت ألقابه عليها، ومن العصي الشهيرة العصا التي حملها ناملیار في حله وترحاله، ولم يتخلف الأدباء عن حمل العصا، فرافقت أكف بعضهم كجبران خليل جبران، وتوفيق الحكيم، الذي كتب في ظل صحبتها كتابه الممتع (عصا الحكيم).

ويذكر أن أسامة بن منقذ قضى ستين عامًا يبحث عن كتاب اسمه (كتاب العصا) وسبب تأليف هذا الكتاب قصة طريفة: وهي أن والد أسامة بن منقذ زار أحد العلماء ومعه كاتب لهم، وكان ذلك الشيخ يجلس وحوله الكتب. وخلال حديث الشيخ مع والد الأمير، تناول ذلك الكاتب كتابًا من تلك الكتب دون إذن الشيخ، فلحظه الشيخ، وغضب، وقال له: ما أحوجك أن يكون ما في يدك فوقها ! فألقى الكاتب الكتاب، فكان اسم الكتاب (العصا). سمع الأمير هذه القصة من أبيه، فمكث ستين سنة يبحث عن هذا الكتاب، في مصر والشام والعراق والحجاز والجزيرة وديار بكر. فلما لم يجده، وكان مشتاقًا لكي يعرف محتواه، فماذا يمكن أن يقول مؤلف في مجلد كامل عن (العصا)!! بادر هو إلى تأليف كتاب عن العصا، وسماه كتاب العصا !!

واشتهرت في الخطاب العربي مقولة: (مسك العصا من الوسط). وكانت في الغالب تقال على سبيل امتداح المهارة الديبلوماسية لشخصٍ ما من خلال موقفه الوسطي بين رأيين متنافرين أو طرفين متخاصمين.

أما العصا والجزرة هو مبدأ (ثواب – عقاب) وهو تعبير مجازي وهذا التعبير مصدره من أوروبا عندما كان أهلها يروضون البغال والحمير باستخدام العصا والجزرة، بحيث يتم مسك الجزرة بيد ووضعها أمام الحمار والعصا بيدٍ أخرى، فيسير الحمار إن طاوع الجزرة وإن عصى فله العصا.

عملنا في الكتاب

اعتمدنا في تحقيقنا لهذا الكتاب البديع على طبعته الحجرية التي طبعت في باريس عام (١٨٩٣م). وسار عملنا في الكتاب وفق المنهج التالي:

١- نسخ النص نسخًا علميًا دقيقًا.

٢- مطابقة النص ومراجعته مرتين.

٣- ضبط الشواهد الشعرية ضبطًا كاملاً بالشكل، وتخريج بحورها.

٤- تخريج الآيات القرآنية وفق مواضعها من المصحف الشريف.

٥- التعليق على المواضع التي تحتاج زيادة إيضاح، أو بسط مسألة، أو بيان مشكل.

٦- عزو الشواهد الشعرية إلى مصادرها.

٧- ترقيم النص حسب قواعد الترقيم الحديثة.

٨- صنع ترجمة وافية للأمير الفارس والأديب المؤرخ أبي المظفر أسامة بن منقذ.

٩- ذكر العصا في القرآن والسنة وأقوال العرب.

١٠- عمل فهارس تفصيلية لأبواب الكتاب.

وأخيرًا فهذا هو جهد المقل، والمرجو ممن يطلع على كتابنا فيجد فيه عيبًا أن يبادرنا بالنصيحة، والتصويب، فكلٌّ معرض للخطأ، ولا كمال إلا لله سبحانه وتعالى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

الحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه البررة المتقين، وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين صلاة دائمة إلى يوم الدين.

وبعد؛ فإن النفس ترتاح لما سمعت، وتُلِّح في الطلب إذا مُنعت. وكان الوالد السعيد مجد الدين أبو سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ رضي الله عنه، حدثني أنه لمّا توجه إلى خدمة السلطان ملكشاه رحمه الله، وهو إذ ذاك بأصفهان قصد القاضي الإمام الصدر العالم أبا يوسف القزويني رحمه الله، عائداً ومسلّماً، بمعرفة قديمة كانت بينهما، ويد كانت عنده للجد سديد الملك ذي المناقب أبي الحسن عليّ بن مقلد رحمه الله. وذاك أن القاضي المذكور سافر إلى مصر في أيام الحاكم صاحب مصر، فأحسن إليه وأكرمه وصله بصلات سنية، فاستعفى منها وسأله أن يجعل صلته كتباً يقترحها من خزانة الكتب، فأجابه إلى ذلك، فدخل الخزانة واختار منها ما أراده من الكتب، ثم ركب في مركب وتلك الكتب معه، يريد بلاد الإسلام التي في الساحل، فتغير عليه الهواء فرمى بالمركب إلى مدينة اللاذقية وفيها الروم، فبعل بأمره وخاف على نفسه وعلى ما معه من الكتب، فكتب إلى جدى سديد الملك رحمه الله تعالى كتاباً يقول فيه: "قد حصلت بمدينة اللاذقية بين الروم، ومعي كتب الإسلام وقد وقعت لك رخيصاً فهل أجدك حريصاً". فسير إليه من يومه ولده عمى عز الدولة أبا المرهف نصراً رحمه الله، وسير معه خيلاً كثيراً من غلمانه وجنده، وظهراً لركوبه وحمل أثقاله، فأتاه وحمله وما معه فأقام عند جدى رحمه الله مدة طويلة، وكانت له بالوالد رحمه الله عناية وإلف، فلما اجتاز ببغداد قصده ليجدد به عهدا، فحدثني رحمه الله قال: دخلت عليه

ومعي الشيخ أبو الحسن علي بن البوين الشاعر، وهو كاتب كان لجدى رحمه الله، فوجدته قد بلغ من العمر إلى ما غير ما كنت أعرفه فيه، ونسي كثيراً مما كان يذكره، فلما رآني عرفني بعد السؤال، لأنه فارقني وأنا صبي ورآني وأنا رجل، فاستخبرني عن طريقي، فعرفته توجهي إلى دركاه السلطان، فقال: تبلغ خواجا بزرك نظام الدين سلامي، وتعرفه إن الجزء الأول من التفسير الذي قد جمعته قد ضاع، وهو تفسير « بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمـَنِ الرَّحِيم » واسأله أن يأمر باستنساخه من النسخة التي في خزانته وينفذه لي. وكان جمع تفسير القرآن في مجلد، وكان لضعفه وكبره مستنداً بين الجالس والمستلقي على فراش له، وحوله كتب كثيرة، وهو يكتب، فسلم عليه الشيخ أبو الحسن بن البوين كاتب الأمير سديد الملك. قال: البوين أي شيء هو؟ لعن الله البوين! ثم فكر هنيهة وقال: أنت الشاعر النحوي الكاتب؟ قال: نعم. فأنشد[1]:

قـالوا السُّـلاميُّ فقلـت اطبقـي ذا محلبـانُ الضَّـرع لبّـانُ

ثم عاد إلى حديثه معي فلمح الشيخ أبا الحسن وقد أخذ كتاباً من تلك الكتب التي حول فراشه فقال: يدخل الإنسان وينبسط ويقرأ ما عنده من الكتب، أي إني من أهل العلم، ما أحوجك أن يكون ما في يدك فوقها! فألقاه من يده، وكان الكتاب كتاب العصا.

ولي منذ سمعت هذا نحو من ستين سنة أتطلب كتاب العصا بالشام ومصر والعراق والحجاز والجزيرة وديار بكر فلا أجد من يعرفه، وكلما تعذر وجوده ازددت حرصاً على طلبه، إلى أن حداني اليأس منه على أن جمعت هذا الكتاب وترجمته بكتاب العصا. ولا أدري أكان ذاك الكتاب على هذا الوضع أم على وضع غيره. على أني قد بلغت النفس مناها، وكانت حاجة في نفس يعقوب قضاها. ولا أرتاب في أن مؤلف ذلك الكتاب وقع له معنى فأجاد في تأليفه وتنميقه، وأنا فاتني مطلوب ففرغت إلى تجويزه وتلفيقه. وكتابي هذا وإن كان خالياً من العلوم التي يتجمل أصحاب التصانيف بها، ويرغب أولو الفضل في طلبها، فما يخلو من أخبار وأشعار تميل النفوس إليها،

(١) البيت من السريع وانظر: يتيمة الدهر ٥/١٠٤.

ويحسن موقعها ممن وقف عليها. وقد افتتحه بذكر عصا موسى عليه السلام، ثم ذكر عصا سليمان بن داود عليه السلام، ثم أفضت في ذكر الأخبار والأشعار التي يأتي فيها ذكر العصا. ولا أدعي أني أتيت على ذكر العصا فيما جمعته، وإنما أدرت منه ما حفظته وسمعته. وبالله عز وجل أعوذ وأعتصم، من أن تكتب يدي ما يؤثم ويصم. ومن رحمته تعالى أطلب الصفح والغفران، عن اشتغالي بالترهات عن تلاوة القرآن، وهو سبحانه أقرب مدعو، وأكرم مرجو.

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل في تسمية العصا

قال أبو بكر محمد بن دريد[١] رحمه الله: إنما سميت العصا عصا لصلابتها، مأخوذ من قولهم عصَّ الشيء وعصا وعسا، إذا صلب. واعتصت النواة، إذا اشتدت. فإنما العصا مثل يضرب للجماعة. يقال شق فلان عصا المسلمين والجماعة. وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: « **إِيَّاكَ وَقَتِيلَ الْعَصَا** »[٢] يريد المفارق للجماعة فيقتل.

---

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي البصري الدوسي المولود في عام (٢٢٣هـ/٨٣٧م والمتوفي في عام ٣٢١هـ/٩٣٣م).

وهو من نسل ملك العرب مالك بن فهم الدوسي الأزدي، وهو عالِم باللغة وشاعر وأديب عربي و من أعظم شعراء العرب.

كان يقال عنه: ابن دريد أعلم الشعراء وأشعر العلماء.

كان ابن دريد بارعاً في اللغة والأدب عالماً بأخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم، قام في ذلك مقام الخليل بن أحمد الفراهيدي. ونبغ في الشعر حتى قيل عنه : أعلم الشعراء وأشعر العلماء. وقد وضع أربعين مقامة كانت هي الأصل لفن المقامات.

وقد أثنى كثير من العلماء على ابن دريد، حيث قال أبو الطيب اللغوي: ابن دريد انتهى إليه علم لغة البصريين وكان أحفظ الناس، وأوسعهم علماً، وأقدرهم على الشعر، وما أزدحم العلم والشعر في صدر أحدٍ ازدحامهما في صدر أبي بكر بن دريد.

توفي في بغداد ودفن في المقبرة العباسية المعروفة مقبرة الخيزران، ليلة السبت ٢٣ رجب سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م، وكان يومها مطر شديد ولم يخرج بجنازته إلا نفر قليل من محبيه وعارفي فضله، ودفن معه قبل ساعة من دفنه أبو هاشم الجبائي شيخ المعتزلة.

انظر: تاريخ بغداد جـ٢/ ص١٩٥، تاريخ الأدب العربي أحمد حسن الزيَّات دار المعرفة بيروت- لبنان ص٢٧٤-٢٧٥. ياقوت : معجم الأدباء جـ١٨ ص١٢٨، أعيان الزمان وجيران النعمان في مقبرة الخيزران - وليد الأعظمي - مكتبة الرقيم - بغداد ٢٠٠١م - الصفحات ٢٣، ٢٤، ٢٥.

(٢) هو مثل مشهور ، وليس حديثًا مرفوعًا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . انظر "مجمع الأمثال" للميدانيّ (١/١١٣) .

وألقى الرجل عصاه، إذا اطمأن مكانه. ويقال عصا وعصوان، والجمع العصي، وأعصى الكرم، إذا خرج عيدانه. وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: « **لاَ تَرْفَعْ عَصَاكَ عَنْ أَهْلِكَ** » [1] يراد به الأدب.

ويقال لعظام الجناح عصي. وعصوت الجرح، إذا داويته. والعصيان: خلاف الطاعة. قال: دريد بن الصمة[2]:

---

(١) تمامه: « وأخفهم في الله عز وجل» أخرجه ابن أبي الدنيا في « كتاب العيال » برقم (٣٢١) والطبراني في « الأوسط » برقم (١٨٦٩) وفي «الصغير» برقم (١١٤) وأبو نعيم في « الحلية » (٣٣٢/٧) من طريق إسحاق بن بهلول الأنباريّ عن سويد بن عمرو الكلبيّ عن الحسن بن صالح ، عن عبدالله بن دينار ، عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا .

وقال ابن أبي حاتم في « كتاب العلل » (٥٨/٤-٥٩) برقم (١٢٥٤) بعد أن ساق الحديث : « قال أبي : هذا حديث كذب » .

(٢) هو دريد بن الصمة، واسم الصمة معاوية، بن الحارث بن معاوية بن بكر بن علفة. ويقال علقمة، بن جداعة بن غزية بن جثم بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان. وأمه ريحانة بنت معدي كرب، أخت عمرو بن معدي كرب،

ودريد شاعر فحل، قال الأصمعي: «هو في بعض شعره أشعر من الذبياني، وقد كاد يغلب الذبياني». ونقل الأغاني عن الجمحي أنه «جعله أول شعراء الفرسان». وهو أحد الشجعان المشهورين وذوي الرأي في الجاهلية. وكان سيد بني جثم وفارسهم وقائدهم وكان مظفرًا ميمون النقيبة، وغزا نحو مائة غزوة ما أخفق في واحدة منها.وأدرك الإسلام فلم يسلم. وخرج مع قومه في يوم حنين مظاهرًا للمشركين، ولا فضل فيه للحرب، وإنما أخرجوه تيمنًا به وليقتبسوا من رأيه، فمنعهم مالك بن عوف من قبول مشورته، وخالفه لئلا يكون له ذكر، فقتل دريد يومئذ على شركه. وقال خاله عمرو بن معدي كرب: «لو طفت بظعينة أحياء العرب ما خفت عليها، ما لم ألق عبديها وحريها» يعني بالعبدين: عنترة بن شداد والسليك بن السلكة، وبالحرين: دريد بن الصمة وربيعة بن مكدم. ودريد أحد المعمرين، يقال إنه عاش نحوًا من مائتي سنة، حتى سقط حاجباه على عينيه. وكان له ابن يقال له سلمة، وكان شاعرًا، وهو الذي رمى أبا عامر الأشعري بسهم فأصاب ركبته فقتله. وكان له أيضًا بنت تدعى عمرة، شاعرة، ولها فيه مراث كثيرة.

وانظر: المؤتلف ١١٤، والموشح ٤١، والاشتقاق ١٧٧ – ١٧٨، والجمهرة ١: ١٨٥ – ١٨٦، والشعراء ٤٧٠ – ٤٧٢، والمعمرين ٢١ – ٢٢، وسيرة ابن هشام ٨٤٠ – ٨٤١، ٨٥٢ – ٨٥٣، والأغاني ٩: ٢ – ١٩، والخزانة ٤: ٤٤٤ – ٤٤٧، ٥١٣ – ٥١٦ والعقد ٣: ٧٥ – ٧٧ .

فلَّما عَصْونِي كُنْتُ منهم وقَدْ أَرَى غَــوَايَتَهُمْ وإنَّنـــي غَيــرُ مُهْتــدِ[١]

وقد سميت الهِرَاوَة[٢]، وجمعها هَراوَى. قال ابن فارس في كتاب مجمل اللغة: هروته بالهراوة، إذا ضربته بها.

قال العباس بن مرداس السلمي[٣] أبياتاً ذكر فيها الهراوة أنا ذا كراها وموردها لحسنها وجزالتها، وهي من مختار الشعر. وقد اختارها أبو تمام حبيب ابن أوس الطائي في حماسته في باب الأدب، وهي[٤]:

تَــرى الرَجُــلَ النَحيــفَ فَتَزدَريــهِ وَفـــي أَثوابِـــهِ أَسَـــدٌ مُزيـــرُ

---

(١) البيت من بحر الطويل من قصيدة طويلة لدريد بن الصمة الشاعر المعمر الجاهلي ويرثي فيها أخاه عبد الله، وانظر القصيدة في جمهرة أشعار العرب للقرشي (٢٢١)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي (٢٧١)، والخزانة (١١/ ٢٧٩).

(٢) وهي عصا ضخمة ذات رأس مدبّب تستخدم كسلاح.

(٣) العبّاس بن مرداس السلمي صحابي وشاعر من المخضرمين ممن اشتهروا في بداية عهد الإسلام وقبله وكان من سادات قومه بني سليم.

ونسبه: هو العباس بن مرداس ابن أبي عامر بن حارثة بن عبد قيس بن رفاعة بن الحارث بن بهثة بن سليم بن منصور.أسلم قبل فتح مكة ووافى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في تسعمائة من قومه بني سليم على الخيول والقنا والدروع الظاهرة ليحضروا مع رسول الله عليه الصلاة والسلام فتح مكة.

وكان أبوه مرداس شريكًا ومصافيًا لحرب بن أمية القرشي وقتلتهما جميعًا الجن وخبرهما معروف عند أهل الأخبار، وذكروا أن ثلاثة نفر ذهبوا على وجوههم فهاموا ولم يوجدوا ولم يسمع لهم بأثر: طالب بن أبي طالب وسنان بن أبي حارثة المري ومرداس بن أبي عامر أبو عباس بن مرداس.

و كان "من المؤلفة قلوبهم، وممن حسن إسلامه منهم"، وكان ممن انبعث في خاطرهم روح الإيمان بالدين الإسلامي حينما حرق صنمه ضماراً معلناً إسلامه.

كنيته أبو الهيثم، صحابي وشاعر فارس يعد من المخضرمين، من سادات قومه، أدرك الجاهلية والإسلام، وكان من المؤلفة قلوبهم، ويدعى فارس العُبَيْد بالتصغير، وهو فرسه، وكان بدوياً قحاً لم يسكن مكة ولا المدينة، وكان يغزو مع النبي ويرجع إلى بلاد قومه، وكان ممن ذم الخمر وحرمها في الجاهلية، ومات في خلافة عمر نحو سنة ١٨هـ.

(٤) الأبيات من الوافر، وهو للعباس بن مرداس في ديوانه ص ٥٨.

وَيُعجِبُـــكَ الطَرِيـــرُ فَتَبتَليـــهِ فَيُخلِـفُ ظَنَّـكَ الرَجُـلُ الطَرِيـرُ
فَمـا عِظَـمُ الرِجـالِ لَهُـم بِفَخـرٍ وَلَكِـــن فَخـــرُهُم كَـــرَمٌ وَخَيـــرُ
ضِـعافُ الطَيـرِ أَطوَلُهـا جُسـوماً وَلَـــم تَطُـــلِ البُـــزاةُ وَلا الصُـــقورُ
بُغـــاثُ الطَيـــرِ أَكثَرُهـــا فِراخـــاً وَأُمُّ الصَـــقرِ مِقـــلاتٌ نَـــزورُ

بغاث الطير: صغارها، وفيها ثلاث لغات: ضم الباء وفتحها وكسرها.

والمقلات: التي لا يعيش لها ولد.

لَقَـــد عَظُـــمَ البَعيـــرُ بِغَيـــرِ لُـــبٍّ فَلَـــم يَســـتَغنِ بِـــالعِظَمِ البَعيـــرُ
يُصَـــرِّفُهُ الصَـــبيُّ بِكُـــلِّ وَجـــهٍ وَيَحبِسُـــهُ عَلـــى الخَســـفِ الجَريـــرُ

الجرير: حبل يكون في رأس البعير.

وَتَضـــرِبُهُ الوَليـــدَةُ بِـــالهَراوى فَـــلا غِيَـــرٌ لَدَيـــهِ وَلا نَكيـــرُ
فَـــإِن أَكُ فـــي شِـــرارِكُمُ قَلـــيلاً فَـــإِنّي فـــي خِيـــارِكُمُ كَثيـــرُ

ذكر أبو هلال العسكري اللغوي[1] رحمه الله في كتاب الأوائل قال: أول من خطب على العصا وعلى الراحلة قُسّ بن ساعدة الإيادي[2]، فمما ورد عنه من خطبه قوله:

---

(١) أبو هلال العسكري وهو الحسن بن عبد الله العسكري ولد عام ٩٢٠م، وتوفي عام ١٠٠٥م (٣٩٥هـ). وكان شاعرًا وأديبًا له مؤلفات كثيرة، ويرجع نسبه إلى عسكر مكرم من كور الأهواز، وهو ابن أخت أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري، وهو تلميذه أيضا. انظر: تاريخ الإسلام للامام الذهبي ٩/ ٣٣٨.

(٢) قُسُّ بن ساعدة الإيادي. من حكماء العرب قبل الإسلام. توفي حوالي عام ٦٠٠م الموافق ٢٣ قبل الهجرة.

نسبه إلى قبيلة إياد: قُسُّ بن ساعدة بن حُذَافة بن زُفر بن إياد، وقيل: قُسُّ بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن ايدعان بن النمر بن وائلة بن الطمثان بن عوذ مناة بن يقدم بن أفصى بن دعمي بن إياد.

(أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا وَعُوا، مَنْ عَاشَ مَات، وَمَنْ مَاتَ فَات، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آت... مطر ونبات وأرزاق وأقوات وآباء وأمهات وأحياء وأموات جمع وأشتات، لَيْلٌ دَاج، وَنَهَارٌ سَاْج، وَسَماءٌ ذَاتُ أبْرَاجٍ، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ومهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تَمور، وبحار لا تغور، وَنُجُومٌ تَزْهَر، وَبِحَارٌ تَزْخَر.. إِنَّ فِى السَّمَاءِ لَخَبَراً، وإِنَّ فِى الأرضِ لَعِبَراً، مَا بَالُ النَّاسِ يَذْهبُونَ وَلاَ يَرْجِعُون؟!، أَرَضُوا فَأَقَامُوا، أمْ تُرِكُوا فَنَامُوا؟، تباً لأرباب الغفلة من الأمم الخالية والقرون الماضية. يا معشر إياد.. يا مَعْشَرَ إيَاد: أيْنَ الآبَاءُ والأجْدَادُ؟، وأيْنَ الفَرَاعِنَةُ الشِّدَادُ؟، أَلَمْ يَكُوْنُوا أكْثَرَ مِنْكُم مَالاً وأطولَ آجالاً؟، طَحَنَهُم الدهْرُ بِكَلْكَلِهِ، ومزَّقَهم بتطاوُلِه.... يقسم (قس) بالله قَسَماً لا إثم فيه إن لله ديناً هو أرضَى لكم وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكراً.

=

يذكر أحمد أمين أن أدباء العرب ذكروا أن ابن ساعدة كان نصرانيا وأنه أسقف كعبة نجران بينما يقطع لامانس في كتابه عن يزيد ببطلان ذلك ويذكر أنه لم يكن له صلة بنجران ويرجح أنه من الحنيفية، ويعده الشهرستاني في كتاب الملل والنحل بين من يعتقد التوحيد ويؤمن بيوم الحساب.

قيل: أنه أوّل من خطب متكئاً على عصا.

وأول من كَتَب: "من فلان إلى فلان".

وأول من قال: "أما بعد".

وأول من قال: "البينة على مَنْ ادَّعَى واليمينُ عَلَى من أنكر".

وينسب الرواة كذلك إلى قس بن ساعدة حكما كثيرة منها:

إذا خاصمت فاعدل، وإذا قلت فاصدق، ولا تستودعن سرك أحدا، فإنك إن فعلت لم تزل وجلا، وكان بالخيار، إن جنى عليك كنت أهلا لذلك، وإن وفي لك كان الممدوح دونك. وكن عف العيلة مشترك الغنى تسد قومك.

من عيرك شيئا ففيه مثله، ومن ظلمك وجد من يظلمه، وإذا نهيت عن الشيء فابدأ بنفسك. ولا تشاور مشغولا وإن كان حازما، ولا جائعا وإن كان فهما، ولا مذعورا وإن كان ناصحا.

انظر: خزانة الأدب - البغدادي - ج٢ - الصفحة ٨٠، السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها،ج١،ص٣٩٦.

ثم أنشأ يقول[١]:

فِـــي الـــذَّاهِبِينَ الأَوَّلِيـــ ـــنَّ مِـــنَ الْقُـــرُونِ لَنَـــا بَصَـــائِرْ
لَمَّـــا رَأَيْـــتُ مَـــوَارِدًا للقـــوم لَـــيْسَ لَهَـــا مَصَـــادِرْ
وَرَأَيْـــتُ قَـــوْمِي نَحْوَهَـــا يمضـــي الأصـــاغر والأكـــابر
وَلا يَرْجِـــعُ الْمَاضِـــي إلـــ ـــيَّ وَلا مِـــنَ الْبَـــاقِينَ غَـــابِرْ
أَيْقَنْـــتُ أَنِّـــي لا مَحَـــا لَـــةَ حَيْـــثُ صَـــارَ الْقَـــوْمُ صَـــائِرْ)

قال المؤلف أطال الله بقاءه العرب تقول: **فلان ممن قُرِعَت له العصا**[٢]، إذا كان يرجع إلى الصواب، وينقاد إلى الحق، ويستقيم عند زيغه إذا نبه.

وتقول: **فلان صُلْبُ العَصا**[٣]، إذا كان ذا نجدة وحزامة.

وتقول إذا تفرقت الخلطاء واختلفت آراء العشيرة ومرج الأمر: **اِنْشَقَّتْ العصا**.

وتقول للمسافر إذا آب واستقرت به داره: **ألقى عَصا التَّسْيارِ، فَأَلْقَتْ عصاها**.

---

(١) الأبيات من مجزوء الكامل، وهي لقس بن ساعدة في تاج العروس ١٠/ ٢٠٠ (بصر)؛ وأساس البلاغة (بصر)؛ وبلا نسبة في لسان العرب ٤/ ٦٥ (بصر)؛ وتهذيب اللغة ١٢/ ١٧٧؛ وكتاب العين ٧/ ١١٨.

(٢) كان هناك رجل من حكماء العرب يُدعى "عامر بن الظرب العدواني" ، وقد اشتهر بحكمته التي لا يعادلها حكمة وبفهمه الذي لا مثيل له في كافة الأمور ، لذلك حاز على لقب "ذي الحلم"، ولكنه حينما كبر في السن ؛ أصبح مثله مثل أي إنسان يفقد بعض عقله نتيجة لتلك الشيخوخة .

وكان عامر العدواني في هذه الفترة لازال يفطن إلى ما حدث له بعد أن دارت به الحياة دورتها الطبيعية ، غير أنه كان ذكيًا واعيًا لغياب عقله بعض الشيء ، وهو ما جعله يطلب من أولاده أن ينتبهوا لأفعاله حيث قال لهم : "لقد كبرت سني ، وعرض لي سهو ، فإذا رأيتموني خرجت من كلامي ، وأخذت في غيره ، فاقرعوا لي المجنّ (الترس) بالعصا".

وبالفعل بدأ أبنائه ينتبهون كلما تحدث ، وكان كلما خرج عن حديثه أو سها بعض الشيء ؛ كانوا يقومون بقرع العصا من أجله ، فينتبه لما يفعله ، ومنذ ذلك الحين اشتهرت مقولة "إن العصا قرعت لذي الحلم"، لتدل على أنه لا يوجد إنسان على وجه هذه البسيطة أكبر أو أقوى من أن يصاب بأمراض الشيخوخة اللعينة .

(٣) صُلْبُ العَصا وصليبُ العَصا إذا كان يَعْنُفُ بالإبل فيَضْرِبُها بالعَصا

فصل في قرع العصا

قال النبي صلى الله عليه وسلم: « **مَا قَرَعْت عَصَا عَلَى عَصَا إلَّا فَرِحَ لَهَا قَوْمٌ وَحَزِنَ آخَرُونَ** »[١].

قال الحجاج بن يوسف الثقفي[٢] في بعض خطبه: "والله لأعصبنكم عصب السلمة[٣]، وألْحوَنَّكم لحو العصا، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوي الأخلاق. إني والله سمعت لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به الله في الترغيب، ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب. يا عبيد العصا وأشباه الإماء، إنما مثلي ومثلكم ما قاله ابن براقة الهمذاني[٤][٥]:

---

(١) رواه الماوردي في أدب الدنيا والدين ٢٥٥/١.

(٢) أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ - ٩٥ هـ = ٦٦٠ - ٧١٤ م)، قائد في العهد الأموي، وُلِدَ ونَشأَ في الطائف وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته، ثم ما زال يظهر حتى قَلَّدَه عبد الملك أمر عسكره. أمره عبد الملك بقِتالِ عبد الله بن الزبير، فزحف إلى الحجاز بجيشٍ كبيرٍ وقتل عبد الله وفرَّق جموعه، فولاَّه عبدُ الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه، فانصرف إلى الكوفة في ثمانية أو تسعة رجال على النجائب، فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين سنة. بنى مدينة واسط ومات بها، وأجري على قبره الماء، فاندرس. وكان سَفَّاكاً سَفَّاحاً مُرْعِباً باتِّفاقِ مُعْظَمِ المُؤَرِّخِين. عُرف بالمبير أي المُبيد.

(٣) السَّلَمَة: شَجَرَةٌ من العِضاه ذاتُ شَوْك وورَقُها القَرَظُ الذي يُدبَغُ به الأَدَمُ ويَعْسُر خَرْطُ وَرَقِها لكَثْرَةِ شَوْكِها، فتُعْصَبُ أَغصانُها بأَن تُجْمَع، ويُشَدّ بَعْضُها إِلَى بَعْض بِحَبْلٍ شَدًّا شَدِيدًا، ثم يَهْصُرُها الخَابِط إِلَيْه ويَخبِطُها بعَصاه فَيَتَنَاثَر ورَقُها للمَاشِيَة، والمَنْ أَرادَ جَمْعَه. وقيل: إِنَّما يُفْعَل بِهَا ذَلِكَ إِذَا أَرَادُوا قَطْعَها حتى يُمْكنَهم الوُصُولُ إِلَى أَصْلِهَا وأَصْلُ العَصْب: اللَّيُّ. ومنه شَدّ خُصْيَيِ مُثَنًّى، التَّيْسِ والكَبْش وغَيْرهما من البَهَائم شَدًّا شَديدًا حتى يَسْقُطا، وفي بعض الأُمَّهات يَنْدُرَا بدل يَسْقُطَا من غيْر نَزْعٍ أَو سَلّ.

(٤) شاعر شجاع فاتك من صعاليك الجاهلية، واسمه عمرو بن منبه، وبراقة اسم أمه، المؤتلف والمختلف (٦٦).

(٥) البيتان من بحر الطويل، وهما من قصيدة له في الفخر والشجاعة، حيث أغار على عدو له، واقتص لنفسه واسترد ماله، وانظر الأبيات في الأمالي لأبي علي القالي (٢/ ١٢٢)، وشرح شواهد المغني للسيوطي (٥٠٠).

وكُنتُ إذَا قَوْمٌ غَزَوْني غَزَوْتُهُم فَهَلْ أنَا في ذا يال هَمْدَانِ ظَالِمُ
مَتَى تَجْمَعُ القَلْبَ الذكِيَّ وصَارمًا وأنفًا حَمِيًّا تَجْتَنِبكَ المَظَالِمُ

والله لا تقرع عصاً على عصا إلا جعلتها كأمس الدابر".

وقال وعلة بن الحارث بن ربيعة[1]:

وزعمتَ أنَّا لا حلومَ لنا إن العصا قرعت لذي الحلم
أقتلتَ سادتنا بغير دمٍ إلا لتوهنَ آمن العصم

وقال كثير بن عبد الرحمن الخزاعي[2]:

وَقَدْ قَرَعَ الوَاشُونَ فيها لَكَ العَصَا وإنّ العَصا كانتْ لِذِي الحِلْمِ تُقْرعُ

ذو الحلم: عامر بن الظرب العدواني[3]، وكان حكماً للعرب يرجع إلى حكمه ورأيه، فكبر وأفناه الكبر والدهر وتغيرت أحواله، فأنكر عليه الثاني من ولده أمراً من

(١) البيتان من الكامل، وهما للحارث بن وعلة في ديوانه ص ٤٠٨، ولسان العرب ٨/ ٢٦٣ (قرع)، وتاج العروس ٢١/ ٥٣٥ (قرع)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٦٦٧.

(٢) البيت من الطويل، وهو في المنازل والديار ١/ ٢٤.

(٣) عامر بن الظرب العدواني قاض من قضاة الطائف، من حنفاء العرب وأئمتهم الذين تحاكم إليهم الناس، وصارت أحكامهم قانون يحتكمون إليه، و أحد حكماء الحجاز وأشرافهم، ينتمي إلى قبيلة عدوان المعدية العدنانية الحجازية، فهو أحد سادات مضر و قيس عيلان وحكيمهم في دار الحكمة بالطائف، له أحكام فقهية أقرها الإسلام، وكان عامر ممن حرم اكل الميتة والزنا والخمر في الجاهلية، كما اوجب ختان الذكر والأنثى.

قنن عامر بن الظرب العديد من القوانين والاحكام، أبرزها قانون الخلع، ففرق بين الزوج وزوجته التي عافته ونفرت منه، ورد عليه الصداق، وقد وافق حكمه حكم الإسلام. ومن القوانين التي قننها أيضاً عامر بن الظرب (تخصية الزاني والعبد والمجنون)، وختان الذكر والأنثى، وطبقها العرب سنين طويلة حتى مجيء الإسلام.

و لنزاهة احكامه و عدل قضاءه، ذاع صيت عامر في أنحاء الجزيرة العربية، فكان بعض اليهود والنصارى يأتون إلى الطائف قادمين من يثرب واليمن وبصرى لكي يحتكمون عند عامر بن الظرب، فحكم لهم بتحريم زواج الرجل من زوجة أبيه وزوجة أخيه، وتحريم اكل الميتة والزنا وشرب الخمر.

حكمه فقال له: إنك ربما أخطأت في الحكم ويحمل عنك. فقال: اجعلوا لي أمارة أعرفها، فإذا أخطأت وقرعت لي العصا رجعت إلى الحكم. فكان يجلس أمام بيته يحكم ويجلس ابنه في البيت ومعه العصا، فإذا زلّ وهفا قرع له الجفنة بالعصا.

وإياه عني المتلمس[١] بقوله[٢]:

=

من أقواله: القضاء حكمة وعدل و استقامة لأمر الناس. دعوا الرأي يغب حتَّى يختمر، وإيَّاكم والرَّأيَ الفطير. الرَّأيُ نائِم والهوى يقظان؛ ولذلك يغلب الرَّأي الهوى. لو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء.

من المعارك التي قادها ابن الظرب، معركة البيداء، و كان سببها مجيء مذحج من اليمن، إلى الحجاز قاصدة متسعًا من الأرض وموطنًا جديدًا صالحًا، فاصطدمت بقبائل معد النازلة بتهامة (وتهامة هي موطن معد القديم) فبرزت لها قبيلة عدوان ورئيسها يومئذ عامر بن الظرب، الذي جمع من كان في تهامة من فرسان معد وهاجموا مذحج فغلبوهم وقتلوا منهم، و اسروا جنودهم المهزومين. وكان هذا اليوم هو ثاني يوم اجتمع فيه بنو معد تحت راية واحدة ، وكانوا قد اجتمعوا قبلها تحت راية قريش بن كنانة، وتوحدوا بعدها ٤ مرات، إحداها تحت راية (ربيعة) بقيادة ربيعة بن الحارث والد كليب في يوم سراة الحجر، وأخرى تحت راية (ربيعة) بقيادة كليب.

انظر: العرب قبل الإسلام "ص٢١، كتاب المحبر – محمد بن حبيب البغدادي – الصفحة ١٨١، عامر بن الظرب/ الحنفاء قبل الإسلام ص ٢٣.

(١) المتلمِّس ويسمّى المتلمّس الضبعي، شاعر جاهلي، واسمه جرير بن عبدالمسيح الضبعي وقيل جرير بن عبدالعزى، من قبيلة ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ، احدى قبائل بكر بن وائل . لقّب بالمتلمّس لبيت من شعره يقول فيه:

وذاك أوان العـــرْض حـــيَّ ذبابـــه زنـــــــابيره والأزرق المـــــــتلمّسُ

وهو خال طرفة بن العبد ويروون أنه كان بصحبته حين أتاهما الكتاب من ملك الحيرة بقتلهما، ففتحه المتلمّس ونجا ولم يفتحه طرفة فقُتل. وقد عدّه ابن سلام الجمحي في "طبقات فحول الشعراء من شعراء" الطبقة السابعة لكونه من المقلّين. و مما يعرف عنه أنه كان مولعاً بالصيد كثيراً .. و غير مبالٍ بالأصنام و الأوثان حتى أنه يستهزئ بها و بمن يسجد لها لذلك لاقى معاداة من بعض القوم و اتهموه بالمس و السحر.

(٢) البيت من الطويل، وهو للمتلمس في ديوانه ص٢٦؛ ولسان العرب ٨/ ٢٦٣ (قرع)؛ وجمهرة اللغة ص٦٦٧، ٧٦٩؛ وتاج العروس ٢١/ ٥٣٦ (قرع)؛ وبلا نسبة في تهذيب اللغة ١/ ٢٣٢.

لِذِي الْحِلْم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العصَا وما عُلِّم الإنسانُ إلا لِيَعْلَمَا

(**صلب العصا**) يقال: فلان صلب العصا، إذا كان جلداً قوياً على السفر والسير. قال الراعي يصف راعياً[1]:

صلبُ العصا بضربهِ دمّاها إذَا أرَادَ رَشَداً أَغْوَاهَا

قوله: "بضربه" أي بسيره. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء:١٠١]: سافرتم.

وقوله: "دمّاها" أي تركها كالدمى، واحدتها دمية، وهي الصور في المحاريب.

وقوله "أغواها" أي رعاها الغواء، وهو نبت تسمن عليه الإبل .

وقال أبو المجشر الضبي[2]:

فإن تكُ مدلولاً علي فإنني كريمك لا غمرٌ ولا أنا فانِ

وقد عجمتني العاجماتُ فأسارت صليب العصا جلدا على الحدثان

صبوراً عل عضِّ الخطوب وضرسها إذا قلَّصتْ عن الفم الشفتانِ

(**انشقت العصا**) العرب تقول: فلان يشق العصا، إذا كان لا يدخل تحت حكم ولا طاعة مخالفاً لأمر الآمرين. ويستعمل شق العصا فيمن يتفرق عنه أحبابه، ويظعن عنه أصحابه فيظهر مكنون سره، ويبوح مخفي أمره، لضرورة البين الداعية إلى ذلك.

---

(١) البيت من الرجز، وهو للراعي النميري، هو عُبَيد بن حُصين بن معاوية بن جندل، النميري، أبو جندل. شاعر من فحول الشعراء المحدثين، كان من جلّة قومه، ولقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل وكان بنو نمير أهل بيتٍ وسؤدد. وقيل: كان راعَي إبلٍ من أهل بادية البصرة. عاصر جريراً والفرزدق وكان يفضّل الفرزدق فهجاه جرير وقومه بني نمير بقصيدة سميت الدامغة قال فيها : فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلاباً . وهو من أصحاب الملحمات. وسماه بعض الرواة حصين بن معاوية. ويقول عنه الشاعر العراقي فالح الحجية: (أما شعره فيتميز بطابع التقليد والمحاكاة لكثرة مايحفظ من شعر الآخرين، اشتهر بالوصف والمدح والهجاء والشكوى).

(٢) الأبيات من الطويل، وهي بلا نسبة في لسان العرب ١١/ ٢٤٧ (دلل)؛ وتهذيب اللغة ١٤/ ٦٦؛ وتاج العروس (دلل).

قال أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري[١] في كتابه المسمى بالقائف: "مر ركب بشجرة مورية، فاقتضب إنسان منهم عصا ثم شقها، ثم جعل يقتدح قريباً من الشجرة فأورى الزند فقالت الشجرة: يا هذا ما أسرع ما ظهر سرك، وسوف ترغب الركب في اتخاذ زناد مني، فأحور عيداناً في أيدي القوم. فقال: لا تلمني، المغرورة، أظهرت سري ضرورة".

وقال قيس بن ذريح[٢][٣]:

إلى اللهِ أَشكُو نِيَّةً شَقَّتِ العصا ... هيَ اليَوْمَ شَتَّى وَهْيَ أمْسِ جَمِيعُ

مضى زَمَنٌ والنَّاسُ يستشفِعون بي ... فهلْ لِي إلى لُبنى الغداةَ شفيعُ

وأول هذه القصيدة[٤]:

---

(١) أبو العلاء المعري (٣٦٣ هـ - ٤٤٩ هـ) (٩٧٣ -١٠٥٧م) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري، شاعر وفيلسوف ولغوي وأديب عربي من عصر الدولة العباسية، ولد وتوفي في معرة النعمان في الشمال السوري وإليها يُنسب. لُقب برهين المحبسين أي محبس العمى ومحبس البيت وذلك لأنه قد اعتزل الناس بعد عودته من بغداد حتى وفاته.

انظر: عائشة عبدالرحمن. مع أبي العلاء في رحلة حياته. دار المعارف. ص. ٢٦٤-٢٦٥، طه حسين. مع أبي العلاء في سجنه. دار المعارف. الطبعة الرابعة عشرة. ص. ٤٤-٤٥.

(٢) قيس بن ذريح الليثي الكناني والملقب بمجنون لبنى (٦٢٥م - ٦٨٠)، أخو الحسين بن علي من الرضاع، وشاعر غزل عربي، من المتيمين، من أهل الحجاز. عاش في فترة خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان في القرن الأول من الهجرة في بادية العرب.

لم يكن قيس مجنوناً وإنما لقب بذلك لهيامه في حب لبنى التي نشأ معها وعشقها وتزوجها ثم طلقها لكونها لا تلد فهام على وجهه ينشد الأشعار ويأنس بالوحوش ويتغنى بحبه العذري، وتزوجت بعده فلما مرت فترة من الزمن ساءت حاله وهام مجدداً بعد أن رآها فخيرها زوجها بين أن تبقى معه أو أن يطلقها لترجع إلى قيس فاختارت الطلاق والرجوع إلى قيس بن ذريح غير أنها بعد الطلاق ماتت فمات على إثرها قيس بن ذريح.

وهو أحد القيسين الشاعرين المتيمين والآخر هو قيس بن الملوح "مجنون ليلى".

(٣) البيتان من الطويل ، وانظر: الأغاني ٢٤٧/٥.

(٤) انظر: المنازل والديار ٧٨/١.

سقى طلَلَ الدارِ الذي أنتمُ بها حنـــاتمُ وبـــلٍ صـــيِّفٌ وربيـــعُ

قال المؤلف أطال الله علاه: وقد صرعت هذه الأبيات جميعاً وأثبتها في ديوان شعري، وأنا ذاكر تصريع هذين البيتين لما فيهما من ذكر العصا. قال غفر الله له:

أيرجو لي اللاحي من الحبِّ مخلصا وقلبي إذا ما رضته بالأسى عصا

ولو أن ما بي بالحصى فلق الحصى إلى الله أشكو نيةً شقّت العصا

هي اليوم شتَّى وهي أمسِ جميع

أطاعت بنا لبنى افتراءَ التكذُّبِ وصدُّ التجنِّي غير صدِّ التجنُّب

فيالك من دهرٍ كثيرِ التقلب مضى زمنٌ والناس يستشفعون بي

فهل لي إلى لبني الغداة شفيع

وقال المؤلف أطال الله بقاءه أيضاً أبياتاً في ذكر العصا، وهي:

رمتنا الليالي بافتراقٍ مشتِّتٍ أشتَّ وأنأى من فراق المحصَّبِ

تخالفت الأهواءُ وانشقَّت العصا وشعَّبنا وشكُ النوى كلَّ مشعب

وقد نثر التوديعُ من كلِّ مقلةٍ على كل خدٍّ لؤلؤاً لم يثقّبِ

المصراع الثاني من البيت الأول من قصيدة لامرئ القيس بن حجر الكندي[1] واسمه حندج، والحندجة: الرملة الصغيرة. وأول القصيدة[2]:

---

(١) هو جندح بن حُجر بن الحارث الكندي (٥٠٠ - ٥٤٠ م) اشتُهر بلقب اُمْرُؤ القَيْس، هو شاعرعربي من مكانة رفيعة، بَرز في فترةِ الجاهلية، ويُعد رأس شعراء العرب، وأحد أبرزهم في التاريخ، اختلفت المصادر في تسميته، فورد باسم جندح وحندج ومليكة وعدي، وهو من قبيلة كندة. يُعرف في كتب التراث العربية بألقاب عدة، منها: المَلكُ الضِّلّيل وذو القروح، وكُني بأبي وهب، وأبي زيد، وأبي الحارث.

(٢) البيت من بحر الطويل من قصيدة بائية طويلة لامرئ القيس في الغزل ووصف الفرس والصحراء، يقال: إنه نظمها استجابة لزوجته أم جندب حتى تحكم بينه وبين علقمة الفحل أيهما أشعر؛ فإن القدماء شكوا فيها واتهموها هي وما يطوى فيها من قصة أم جندب على أن من الرواة من لاحظ

خَليلَـيَّ مُـرَّا بِـي عَلـى أُمِّ جُنـدَبِ نُقَــضِّ لُبانــاتِ الفُــؤادِ المُعَــذَّب

ومنها البيت:

فَلِلَّــهِ عَيْنَــا مَــنْ رَأَى مِــنْ تَفَــرُّقٍ أَشَــتَّ وَأَنْــأَى مِــنْ فِـرَاقِ الْمُحَصَّـبِ

وقال أبو الحسن مهيار بن مرزويه الديلمي[1]، من جملة قصيدة له:

مــا قصــرت يــدُ الزَّمــان شــدَّ مــا تطـول فـي نقصـي وفـي نقـضِ مـرر

عصــاً شــظايا ومشــيب رائــعٌ ومنــزل نــاءٍ وأحبــاب غــدر

وصــاحبٌ كالــداء إن أخفيتــه غــوَّر وهــو قاتــلٌ إذ اســتتر

وقال المؤلف أطال الله بقاءه:

=

أنها اختلطت بقصيدة على وزنها ورويها لعلقمة بن عبدة٤، ولعل هذا هو الذي جعل بعض الرواة يصنع قصة المعارضة وأن أم جندب حكمت بين الشاعرين، غير ملاحظين أن علقمة كان يعيش في أوائل القرن السابع، فهو ليس من معاصري امرئ القيس.

انظر: (ديوانه (٦٤) دار صادر) والأشباه والنظائر ٨/ ٨٥؛ ولسان العرب ١١/ ٦٥٥ (ندل)، ٥١٨ (محل).

(١) أبو الحسن - أو أبوالحسين - مِهيَارُ بن مروزيه الديّلمِيُّ (توفي ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م) كاتب وشاعر فارسي الأصل، من أهل بغداد. كان منزله في بغداد بدرب رباح من الكرخ. كان مجوسياً فأسلم، ويقال إن إسلامه سنة ٣٨٤ هـ كان على يد الشريف الرضي أبي الحسن محمد الموسوي وهو شيخه، وعليه تخرج في نظم الشعر، وقد وازن كثيرا من قصائده، ويقول القمي: (كان من غلمانه). قال له أبو القاسم ابن برهان: «يا مهيار قد انتقلت بأسوبك في النار من زاوية إلى زاوية»، فقال: «وكيف ذاك؟» قال: «كنت مجوسيا فصرت تسب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعرك».

ويرى هوار أنه وُلِدَ في الدَّيلم، في جنوب جيلان، على بحر قزوين، وأنه استخدم في بغداد للترجمة عن الفارسية. كان ينعته مترجموه بالكاتب، ولعله كان من كتاب الديوان.

كان شاعرا جزل القول، مقدما على أهل وقته، وله ديوان شعر كبير يدخل في أربع مجلدات، وهو رقيق الحاشية طويل النفس في قصائده. ذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في كتابه تاريخ بغداد وأثنى عليه وقال: «كنت أراه يحضر جامع المنصور في أيام الجمعات [يعني ببغداد] ويقرأ عليه ديوان شعره ولم يقدر لي أسمع منه شيئاً». قال الحر العاملي: جمع مهيار بين فصاحة العرب ومعاني العجم.

زدني جوىً يا حبَّهم وأضلَّني يا مرشدي عن منهج السُّلوانِ
لا تنهني عنهم فإنَّ صبابتي لا تستطيع تطيع من ينهاني
أحببتهم أزمانَ غصني ناضرٌ حتَّى عسا وعصى بنانَ الحاني
فارجع بيأسك لستَ أول آمرٍ شقَّ الغرامُ عصاه بالعصيان

وقال أيضاً:

كم ذا التجني وكثرةُ العلل لا تأمنوا من حوادث الملِلِ
ولا تقولوا صبٌّ بنا كلفٌ فأوّلُ اليأس آخر الأملِ
ولستُ ممن يريد شقَّ عصاً الذَّنبِ ذنبي والحب شفِّع لي
هبوني أخطأت عامداً فهبوا خجلةَ عذري ما كان من زللي

وقال امرؤ القيس بن حجر الكندي[1]:

إذا ما لم تَكُنْ إِبِلٌ فَمِعْزَى كَأَنَّ قُرُونَ جِلَّتِهَا العِصِيُّ
فتملأ بيتنا أقطا وسمناً وحسبك من غنًى شبعٌ وريُّ

أي كفاك. وكذلك حسبك الله، أي كفاك.

العرب تقول: "طارت عصا بني فلان شفقا"[2]. وقال الأسدي:

عصيُّ الشملِ من أسدٍ أراها قد انصدعت كما انصدع الزُّجاجُ

ويقال: "فلان شقَّ عصا المسلمين"، ولا يقال: شق ثوباً ولا غير ذلك مما يقع عليه اسم الشق.

(**ألقى العصا**) يقال: ألقى عَصا التَّسْيارِ، إذا أقام وترك السفر. وكأن العرب عنت بقولها "ألقى عصاه" أي وصل إلى بغيته ومراده، أو وطنه ومراده، وراحته، ومظنة

(١) البيتان من الوافر، وهما لأمرئ القيس في ديوانه ص١٣٦؛ ولسان العرب ١٠/ ١٦٦ (سوق)؛ وأساس البلاغة (جلل).

(٢) انظر: المجمع ١/٤٣٣ ؛ المستقصى ٢/١٥٠ .

استراحته. قال الأصمعي[١] واسمه عبد الملك بن قريب قصيدة مدح بها جعفر بن يحيى البرمكي ورحل إليه فمات قبل أن يصل إليه، وذكر فيها العصا، وهي قصيدة طولى أنا مورد منها نبذة لأجل العصا، وهي:

فخطَّـــت إليهـــا مناقيلهـــا وألقـــت عصـــا السَّـــفرِ السُّـــفَّر

وقال راشد بن عبد الله:

وخبَّرهـــا الـــرُّوَّادُ أنْ لـــيس بينهـــا وبـــين قـــرى نجـــران والـــدَّربِ كـــافرُ

فألقت عصاها واستقرَّت بها النَّوى كمـــا قـــرَّ عينـــاً بالإيـــاب المســـافرُ

وقال آخر[٢]:

فألقت عصا التَّسيار عنها وخيَّمتْ بأجبـاءِ عـذبِ المـاء بـيضٍ محـافره

"الجبا": ما حول البئر، مفتوح الجيم مقصور، وجمعه أجباء ممدود.

وقوله: "بيض محافره" يريد أنه لم يحفر في أرض سوداء، ولا من دمن، بل هي أرض صلبة.

وقوله: "خيمت"، أي اتخذت خيمة فأقامت.

---

(١) هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع الباهلي (١٢١ هـ- ٢١٦ هـ/ ٧٤٠ - ٨٣١ م) راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان.

مولده ووفاته في البصرة. كان كثير التطواف في البوادي، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة. أخباره كثيرة جداً. وكان الرشيد يسميه (شيطان الشعر). قال الأخفش: ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي. وقال أبو الطيب اللغوي: كان أتقن القوم للغة، وأعلمهم بالشعر، وأحضرهم حفظاً. وكان الأصمعي يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة. وللمستشرق الألماني وليم أهلورد كتاب سماه (الأصمعيات-ط) جمع فيه بعض القصائد التي تفرد الأصمعي بروايتها. تصانيفه كثيرة، منها (الإبل-ط)، و(الأضداد-ط)، و(خلق الإنسان-ط)، و(المترادف-خ)، و(الفرق-ط) أي الفرق بين أسماء الأعضاء من الإنسان والحيوان.

(٢) البيت من الطويل، وهو لمضرس في تاج العروس (جبا)؛ ولسان العرب ١٤/ ١٢٩

روي أن قتيبة بن مسلم[١] لما تَسَنَّمَ[٢] منبر خراسان سقط القضيب من يده فتطير له صديقه، وتشاءم عدوه، فعرف ذلك قتيبة، فحمد الله تعالى عليه ثم قال: ليس كما سر العدو وساء الصديق، بل كما قال الشاعر[٣]:

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالإِيابِ الْمُسَافِرُ

قال المؤلف أطال الله بقاءه: قال جدى الأمير سديد الملك والمناقب أبو الحسن علي بن مقلد رحمه الله، يخاطب بعض ولاة حلب:

خيَّمتَ في حلبِ العواصم بعدما قلّدتَ خوفك نازحَ الأقطارِ
لا ترضها دار الثَّواء ولا تقلْ في مثلها تلقى عصا التَّسيارِ
استحي من أجداث قومك أن ترى عرض البسيطة وهي دارُ قرارِ

---

(١) قتيبة بن مسلم الباهلي (٤٩ - ٩٦ هـ / ٦٦٩ - ٧١٥ م) قائد إسلامي شهير قاد الفتوحات الإسلامية في بلاد أسيا الوسطى في القرن الأول الهجري.

هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن الأمير أبو حفص الباهلي، وكان أبوه 'مسلم بن عمرو' من أصحاب 'مصعب بن الزبير' وإلى العراق من قبل أخيه أميرالمؤمنين عبد الله بن الزبير، وقاتل معه في حربه ضد عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ هجرية، وقد نشأ قتيبة على ظهور الخيل رفيقاً للسيف والرمح، محباً للفروسية، وقد وأبدى شجاعة فائقة وموهبة قيادية فذة، لفتت إليه الأنظار خاصة من القائد العظيم المهلب بن أبي صفرة وكان خبيراً في معرفة الأبطال ومعادن الرجال فتفرس فيه أنه سيكون من أعظم أبطال الإسلام، فأوصى به لوالى العراق الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان يحب الأبطال والشجعان، فانتدبه لبعض المهام ليختبره بها ويعلم مدى صحة ترشيح المهلب له، وهل سيصلح للمهمة التي سيوكلها له بعد ذلك أم لا. فتح خوارزم وبخارى، وسمرقند، بلخ،كاشغر أستشهد سنة ٩٦ هـ، وعمره ٤٨سنة.

(٢) تَسَنَّمَ ذِرْوَةَ الْمَجْدِ : اِرْتَقَاهَا ، عَلاَهَا.

(٣) البيت من الطويل، وهو لمعقر بن أوس بن حمار في الاشتقاق ص ٤٨١؛ ولسان العرب ١٥/ ٣٤٧ (نوى)؛ وله أو لعبد ربّه السلميّ أو لسليم بن ثمامة الحنفي في لسان العرب ١٥/ ٦٥ (عصا)؛ وبلا نسبة في خزانة الأدب ٦/ ٤١٣، ٧/ ١٧؛ ورصف المباني ص ٤٨.

قال المؤلف أطال الله بقاءه: حدثني من أثق به في شوال سنة سبع وستين وخمسمائة بحصن كيفا قال: كان في خدمة الأمير نجم الدولة مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر رجل عواد يقال له أبو الفرج حدثني قال: كنت يوماً في مجلس الأمير نجم الدولة وهو يشرب إلى أن سكر، وانصرفت إلى منزلي، فما كان أكثر من مضي ساعتين من الليل إذ وافاني رسوله فقال: الأمير يستدعيك. فقلت: ما نزلت حتى سكر! قال: هو أمرني بإحضارك. فمضيت معه فرأيت الأمير جالساً، فقال: يا أبا لفرج، بعد انصرافكم نمت فرأيت إنساناً يغنيني صوتاً حفظته ثم أنسيته، وأريد أن تذكره لي. فقلت: يا مولاي، اذكر لي منه كلمة. فقال: ما أذكر منه شيئاً ولكن اعرض علي ما يحضرك. فعرضت عليه أصواتاً كثيرة وهو يقول: ما هذا الصوت الذي أريته! ثم قال: انصرف وأفكر لعلك تذكره. فانصرفت وأصبحت من بكرة طلعت إلى خدمته فقال: يا أبا الفرج، أي شيء كان من الصوت؟ قلت: يا مولاي، لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى. قال: والله لئن لم تذكره لأخرجنك من القلعة. فقلت: والله يا مولاي ما أدري، ما أذكر من صوت ما سمعته ولا ذكرت لي منه كلمة واحدة؟! فقال خذوه وأخرجوه. فأخرجوني إلى "البليل" فأقمت فيه يوماً.

ثم ردني وعدت إلى الخدمة كما كنت. فأنا يوماً في المجلس أغني إذ قال لي بعض الفراشين: على الباب رجل يطلبك. فخرجت إليه فرأيت رجلاً عليه عمامة مطلسة كعمائم المغاربة، فسلم علي وقال: قد قصدتك لتتوصل لي في الحضور بمجلس الأمير فأنا رجل مغن. فدخلت وأعلمته به فقلت: يا مولاي، إن كان مجيداً سمعته واستخدمته، وإلا وهبته شيئاً وانصرف. فأذن له فدخل فسلم وجلس فشد عوده وغنى:

وخبّرها الروّاد أن ليس بينها ... وبين قرى نجران والدربِ كافرُ

فألقت عصاها واستقرَّت بها النوى ... كما قرَّ عيناً بالإياب المسافر

فقال الأمير: لا إله إلا الله، هذا والله الصوت الذي رأيته في منامي وطلبته منك. فعجبت أنا ومن حضر لهذا الاتفاق.

(**عصا الأعرج**[1]) وقال المؤلف أطال الله بقاءه في أعرج بيتين على سبيل الرياضة ذكرهما وإن لم يكن فيها ذكر العصا:

عابُوا هَوَى شادِنٍ في رجله قِصَرٌ من سُكْرِ ألحَاظِه في مَشْيِه ثَمَلُ

وما هَوَى خُوطِ بانٍ مَاسَ من هَيَفٍ عَيْبٌ، وإنْ كان عيباً فهو مُحْتَمَلُ

(١) عصا الأعرج: تُضرب مثلاً فيقال: أقرب من عصا الأعرج، وذلك بأنه يقرّبها من نفسه إذا قعد لحاجته إليها، فهى قريبة منه في حال قعووو وقيامه.

فصل

قال المؤلف أطال الله بقاءه: زرت المقدس في سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة، وكان معي من أهله من يعرفني المواضع التي يصلي فيها ويتبرك بها ، فدخل بي إلى بيت جانب قبة الصخرة فيه قناديل وستور، فقال لي: هذا بيت السلسلة. فاستخبرته عن السلسلة فقال لي: هذا بيت كانت فيه على عهد بني إسرائيل سلسلة، إذا كان بين اثنين من بني إسرائيل محاكمة ووجبت اليمين على أحدهما دخلا هذا البيت، فوقفا تحت السلسلة، واستحلف المدعى عليه، ثم يمد يده فإن كان صادقاً أمسك السلسة، وإن كان كاذباً طالت عن يده فلا يصل إليها. فأودع رجل من بني إسرائيل جوهراً عند رجل، ثم طلبه منه فقال: أعطيتك إياه. فقال: تحاكمني إلى السلسلة. فمضى المستودع فأخذ عصاً فشقها وحفر فيها للجوهر وتركه فيها، ثم ألصقها عليه ودهنها، وأخذها في يده ودخل مع خصمه بيت السلسلة فقال للخصم: أمسك عني هذه العصا. فمسكها ثم حلف له أنه سلم الجوهرة إليه ومد يده فأمسك السلسلة ثم عاد أخذ العصا وخرجا، فارتفعت السلسلة من ذلك اليوم.

ولم أر هذا الحديث مسطوراً، وإنما أوردته كما سمعته.

قال المؤلف أطال الله بقاءه: كان عندنا بشيزر رجل زاهد من خيار المسلمين، اسمه جرار، رحمه الله، وكان منقطعاً على مسجد على جبل جريجس لا يخرج منه إلا على صلاة الجمعة، وكنت أزوره فيه وأتبرك به. فحدثني بعض من كان يخالطه أنه قال: أردت زيارة الشيخ يس رحمه الله وأظنه كان بمنبج فخرجت أنا ورفقة لي، وفي نفسي أن أطلب منه عصاً، فلما صرنا بالقرب من منبج ومعنا فضلة من زادنا فتحنا رحم حجارة ودفناها فيه ثم رددنا عليه الحجارة، ودخلنا على الشيخ رحمه الله فأقمنا عنده ما أقمنا، ثم ودعناه وعزمنا على المسير، فأحضر لنا زاداً وقال: احملوا هذا فإن زادكم أكله الثعلب. وأحضر عصاً وأخرج من تحت عمامته طاقية وقال لي: خذ هذه العصا وهذه الطاقية. فودعنا وانصرفنا وأنا مسرور بالعصا والطاقية، ونحن نعجب من قوله عن الزاد. فلما صرنا إلى الموضع الذي فيه الزاد طلبناه فلم نجده، وإذا الوحش قد أكلته، فسرنا ثم

افترقنا وركب كل منا قصده، فوصلت إلى أرض شيزر، وإذا الفرنج قد أغاروا على البلد، وهم منتشرون فيما بيني وبين قصدي، فوقع في نفسي أن أخرجت الطاقية من تحت عمامتي ووضعتها على رأس العصا ومشيت على الطريق، والفرنج عن يميني وشمالي وبين يدي والعصا في يدي وعليها الطاقية، فلا والله ما عارضني منهم أحد، كأن الله سبحانه وتعالى أعمى أبصارهم عني، فما نالني منهم سوء حتى وصلت إلى مأمني.

قال المؤلف أطال الله بقاءه: ولعل من يقف على هذا الحديث يدفعه ويكذبه. وقد جرى بشيزر ما هو أعجب من هذا، وأنا حاضر نزل الفرنج علينا في بعض السنين، وكان الماء بيننا وبينهم، وهو إذ ذاك زائد لا يمكن خوضه، فما كان لنا إليهم سبيل ولا لهم إلينا، فلما تبينوا ذلك انتشروا في الأرض ودخلوا في البساتين يرعون خيلهم، فجاء نفر منهم إلى بستان على جانب الماء معهم خيلهم، فتركوها ترعى في قصيل من البستان وناموا، فتجرد رجال من أصحابنا وسبحوا إليهم ومعهم سيوفهم، فقتلوا منهم وجرحوا بعضهم، وانتشر الصياح في الفرنج وهم في خيمهم ففزعوا وجاءوا مثل السيل، كل من ظفروا به قتلوه، وانتهى بعضهم إلى مسجد مما يليهم يعرف بمسجد أبي المجد بن سمية، ونحن نراهم ولا سبيل لنا إليهم، وفي المسجد رجل يُعرف بحسن الزاهد رحمه الله، واقف يصلي على سطحه وعليه ثياب سود صوفاً، وباب المسجد مفتوح، فجاء الفرنج وترجلوا ودخلوا المسجد، ونحن نقول: الساعة يقتلون الشيخ.

فلا والله ما قطع صلاته ولا تحرك من مصلاه، ونحن نظن أنهم يرونه كما نراه، إلا أن الله سبحانه وتعالى أعمى أبصارهم عنه، وحماه من كيدهم، وخرجوا من المسجد بأجمعهم وانصرفوا، والشيخ رحمه الله في مصلاه كما كان. وما العيان كالإخبار والسماع.

قال المؤلف أطال الله بقاءه: حضرت بدمشق وقد وقع بين العميان وبين رجل كان يتولى وقفهم يعرف بابن البعلبكي خلف، فبقوا فيه صاحب دمشق شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري رحمه الله عدة مرار، فقال للأمير مجاهد الدين بوزان بن مامين:

أي مجاهد الدين، بالله خلصني منهم، واجمعهم وأحضر نائبهم في الوقف وافصل حالهم. فقال: السمع والطاعة. وقال لي مجاهد الدين: تفضل واحضر معنا. فاجتمعنا في إيوان كبير في دار، وحضر النائب ابن البعلبكي ونائب كان قبله يقال له ابن الفراش، وحضر العميان في نحو من ثلاثمائة رجل، فحملوا أقدمهم ودخلوا الإيوان، كل واحد وعصاه معه في يده وضعها إلى جنبه، ثم تجاروا الحديث، فكان بعضهم هواه مع النائب الأول ابن الفراش، وبعضهم هواه مع ابن البعلبكي. فتنازعوا وتخاصموا ساعة ولا يتدخل بينهم لعلو أصواتهم كثرتهم، ثم تواثبوا فارتفع في الإيوان نحو من ثلاثمائة عصا في أيدي عميان لا يدرون من يضربون. وعلا الضجيج والصياح حتى ندمت على حضوري. فتلطفنا الأمر حتى سكنت الفتنة بينهم، ومشينا أمرهم على ما أرادوا، وما صدقنا أنهم ينصرفون.

العصا فرس جذيمة الأبرش[1]

قال المؤلف أطال الله بقاءه: ومع ما أوردته فيه من قول أصحاب السير وأشعار الشعراء فلا يحقق ذلك من مارس الحروب وعرف مكايدها، واتقاء الرجال التغرير، والتخوف من سوء عواقب الحيلة وضعف المكيدة. والحزم في الحرب أبلغ من الإقدام. وقد حاربت الفرنج في مواقف ومواطن لا أحصي عددها كثرة فما رأيتهم قط كسرونا فلجوا في طلبنا. ولا يزيدون خيلهم عن الخبب والنقل، خوفاً من مكيدة تتم عليهم. فكيف يحكم من في رأسه لب على نفسه حتى يدخل في غرارة مشدودة عليه أو في تابوت، وكيف يخفى الرجل إذا ربطت عليه غرارة.

وخطر لي أن قلت عند انتهائي إلى هذا الموضع أبياتاً أنا ذاكرها، وهي:

لو سرتَ في عرض البسيطة طالباً ... رجلاً خبيراً بالحروب مجرَّبا

عانى الحروب مجاهراً ومخاتلاً ... طفلاً إلى أن عاد همّاً أشيبا

قتل الأسودَ ونازل الأبطالَ في ال ... هيجاءِ واقتاد الكميَّ المحربا

لم تلقَ مثلي من يكاد يريه حس ... نُ الرأيِ ما قد كان عنه مغيَّبا

وأرى مسير الألفِ تطلب وترها ... ضمنَ الغرائر فريةً وتكذُّبا

---

(١) جذيمة الأبرش هو جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدثان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان هو ثالث ملوك تنوخ وأول ملك في بالحيرة حكم في الفترة (٢٣٣-٢٦٨).

وقيل له الأبرش والوضاح لبرص كان به، ويعظم أن يسمى بذلك فجعل مكانه الأبرش، قيل فيه أنه كان أعظم ملوك العرب في الجاهلية، ومن أفضلهم رأياً وحزماً وشجاعه. ويذكر الجاحظ أن جذيمة من أشهر القدماء في الحكمة الخطابة والرئاسة، وأول من رمى بالمنجنيق، يروي حمزة الأصفهاني أنه حكم بستين سنة. وهو أول من حذا النعال، وأدلج من الملوك وصنع له الشمع، وكان شاعراً.

كان جذيمة بن مالك ملكًا على الحيرة والبحرين واليمامة وعلى ما حولها من السواد، ويفهم من بعض الروايات أيضًا أنه ملك معدًّا بن عدنان وبعض اليمن. قيل أنه هاجم طسما وجديسا.

انظر: الطبري "١/ ٦١٢"، "دار المعارف"، البلدان "٣/ ٣٧٩"، مفاتيح العلوم، للخوارزمي "ص ٦٨".

فصل

قال الفرزدق[١] في قصيدة مدح فيها هشام بن عبد الملك[٢]:

---

(١) الفرزدق (٣٨ هـ / ٦٤١م - ١١٤ هـ / ٧٣٢م) شاعر عربي من شعراء العصر الأموي من أهل البصرة، واسمه همام بن غالب بن صعصعة الدارمي التميمي. وكنيته أبو فراس وسمي الفرزدق لضخامة وتجهم وجهه، ومعناها الرغيف، اشتهر بشعر المدح والفخرُ وَ شعرُ الهجاء.

ولد الفرزدق عام ٣٨ للهجرة وقد سمي بالفرزدق لضخامة وتجهم وجهه. ومعنى الفرزدق، هو الرغيف وواحدته فَرَزْدَقَة، والفرزدق يشبه بزهير بن أبي سلمى وكلاهما من شعراء الطبقة الأولى، زهير في الجاهليين والفرزدق في الإسلاميين، وهو وأبوه قثراء ومن نبلاء قومه وسادتهم بنو تميم ومن أكثر الشعراء، يقال أنه لم يكن يجلس لوجبة وحده أبدا، وكان يجير من استجار بقبر أبيه، و الموؤودات وهن البنات التي كانت تدفن قبل الإسلام في الجاهلية وأدرك الإسلام وكان كريماً جواداً. كان الفرزدق كثير الهجاء، إذ أنَّه اشتهر بالنقائض التي بينه وبين جرير الشاعر حيث تبادل الهجاء هو وجرير طيلة نصف قرن حتى توفي ورثاه جرير. تنقل بين الأمراء والولاة يمدحهم ثم يهجوهم ثم يمدحه.

(٢) هشام بن عبد الملك الأموي القرشي :(٧١-١٢٥ هـ) (٦٩١ م - ٧٤٣ م) كان عاشر خلفاء بني أمية (حكم: ١٠٥-١٢٥ هـ/٧٢٤-٧٤٣ م)، في عهده بلغت الإمبراطورية الإسلامية أقصى اتساعها، حارب البيزنطيين واستولت جيوشه على ناربونه وبلغت أبواب بواتيه (فرنسا) حيث وقعت معركة بلاط الشهداء.

شهدت الفتوحات الإسلامية في عهد هشام بن عبد الملك تقدماً كبيراً.

ولد في دمشق. بويع للخلافة بعد وفاة أخيه يزيد عام ٧٢٣ م. وتزايدت في عهده العصبية القبلية بين المضرية واليمانية، واشتعلت فتن وثورات عديدة في أنحاء الدولة: ثورة الخوارج والشيعة في الكوفة (بقيادة زيد بن علي بن الحسين)، والبربر في المغرب؛ وكذلك اضطربت الفتن في بلاد ما وراء النهر.

في عهده صار للدولة الأموية، إضافة للعاصمة الدائمة ومقر الخلافة دمشق، عاصمة صيفية وهي مدينة الرصافة على نهر الفرات بسوريا تسمى رصافة هشام عرفت بأنها جنات وبساتين مصغرة عن بساتين دمشق. اهتم هشام بن عبد الملك بتنظيم الدواوين، وعمل على رعاية العلم والثقافة، وترجمت في عهده الكثير من المؤلفات. عمل على إصلاح الزراعة فجفف المستنقعات وزاد مساحة الأراضي المزروعة على ضفاف الأنهار وفي أرجاء الدولة. واهتم بالتوسعات، وحقق العديد من الانتصارات على الروم وفي جنوبي بحر الخزر. تميز عهده بسيادة الأمان في بلاد الشام وأرجاء البلاد الإسلامية. توفي بالرصافة، ويعتبر آخر الخلفاء الأمويين الأقوياء.

رَأيْـتُ بَنـي مَـرْوَانَ جَلَّـتْ سُـيُوفُهُمْ عَشاً كَانَ في الأَبْصَارِ تَحْتَ العَمَائِم
عَصَا الدّينِ والعُودَينِ وَالخاتمَ الذي بـِهِ الله يُعطـي مُلْكَـهُ كُـلَّ قَـائِمِ

عصا الدين: السيف. والعودان: العصا والمنبر.

رأيت الغشاواتِ انجلتْ حين أعطيتْ هشاماً عصا الدين الذي لم يخاصم

فصل

قال معن بن أوس المزني[1]:

إذا اجتمـع القبائـل كنـتَ ردفـاً أمـام الماسـحين لـك السـبالا
فـلا تعطـى عصـا الخطبـاءِ فـيهم وقـد تكفـي المقـادةَ والمقـالا

وقال آخر في عصا الخطابة[2]:

إذا اقْتَسَـمَ النـاسُ فَضْـلَ الفَخَـارِ أطَلْنَـا عَلـى الأرضِ مَيْـلَ العَصَـا

تقول العرب: ما تزال تحفظ أخاك حتى يأخذ القناة فعند ذلك يفضحك أو يمدحك. نقول: إذا قام الخطيب والقناة بيده فقد قام المقام الذي يخرج منه مذموماً أو محموداً.

---

(١) معن بن أوس المزني شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم وهو من صحابة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

شاعر فحل مجيد، من مخضرمي الجاهلية والإسلام ويعتبر من أشعر أهل الإسلام كما كان زهير بن أبي سلمى المزني من أشعر أهل الجاهلية. له مدائح في جماعة من الصحابة، رحل إلى الشام والبصرة، وكف بصره في أواخر أيامه، وكان يتردد إلى عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب فيبالغان في إكرامه. له أخبار مع عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وكان معاوية يفضله ويقول: أشعر أهل الجاهلية زهير بن أبي سلمى، وأشعر أهل الإسلام ابنه كعب ومعن بن أوس. وهو صاحب لامية العجم التي أولها: لعمرك ما أدري وإني لأوجل على أينا تعدو المنية أول مات في المدينة.

(٢) البيت من المتقارب، وانظر البيان والتبيين ٣/٢٥.

وقال جرير بن عطية[١][٢]:

مــن للقنــاة إذا مــا عــيَّ قائلهــا أم للأعنَّــة يــا عمــرو بــن عمــار

عن عبد الله بن رؤبة العجاج قال: سأل رجل رؤبة عن أخطب بني تميم، فقال: خداش بن لبيد بن بيبة خالد. يعني البعيث الشاعر[٣]. وإنما قيل له البعيث لقوله[٤]:

تَبَعَّــثَ مِنِّــي مــا تَبَعَّــثَ بَعْــدَما أمــرَّتْ حبــالي كــلَّ مرَّتهــا شــزرا

قال أبو اليقظان: كانوا يقولون: أخطب بني تميم البعيث إذا أخذ القناة فهزها ثم اعتمد بها على الأرض ثم رفعها. يريد بالقناة العصا.

قال يونس: لئن كان مغلبًا في الشعر لقد غلب في الخطب.

---

(١) جرير بن عطية الكلبي اليربوعي التميمي (٣٣ هـ - ١١٠ هـ/ ٦٥٣ - ٧٢٨ م) شاعرُ من بني كليب بن يربوع من قبيلة بني تميم وهي قبيلة في نجد. ولد في بادية نجد، ويؤكد ذلك قوله في إحدى مطلع قصائده انظر خليلي بأعلى ثرمداء ضحى . والعيس جائلة، أعراضها جُنُفُ. حيث أن ثرمداء مدينة في منطقة الوشم في قلب نجد وفي باديتها وادي اسمه وادي الكليبية نسبةً إلى بني كليب قبيلة الشاعر.

من أشهر شعراء العرب في فن الهجاء وكان بارعًا في المدح أيضًا. كان جرير أشعر أهل عصره، ولد ومات في نجد، وعاش عمره كله يناضل شعراء زمنه ويساجلهم فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل. كان عفيفاً، وهو من أغزل الناس شعراً. بدأ حياته الشعرية بنقائض ضد شعراء محليين ثم تحول إلى الفرزدق "ولج الهجاء بينهما نحوا من أربعين سنة" وإن شمل بهجائه أغلب شعراء زمانه مدح بني أمية ولازم الحجاج زهاء العشرين سنة.

وصلت أخباره وأشعاره الآفاق وهو لا يزال حيا، واشتغلت مصنفات النقد والأدب به. اقترن ذكره بالفرزدق والأخطل.

انظر: ابن سلام الجمحي . طبقات فحول الشعراء . ت محمود محمد شاكر . مطبعة المدني . ص ٣٨٩.

(٢) البيت من البسيط، وانظر: البيان والتبيين ٢٥/٣.

(٣) خداش بن بشر بن خالد، أبو زيد التميمي. المعروف بالبعيث: خطيب، شاعر، من أهل البصرة.

قال فيه الجاحظ: أخطب بني تميم إذا أخذ القناة. كانت بينه وبين جرير مهاجاة دامت نحو أربعين سنة. ولم يتهاج شاعران في العرب في جاهلية ولا إسلام بمثل ما تهاجيا به. توفي بالبصرة.

(٤) البيت من الطويل، وانظر: الشعر والشعراء (٤٩٧)، وطبقات فحول الشعراء (٥٣٣).

العرب تقول: اعتصى بالسيف، إذا جعل السيف عصاً. وقال عمرو بن الإطنابة[١][٢]:

وفتًى يضرب الكتيبةَ بالسَّيـ ـفِ إذا كانت السيوفُ عصيا

وقال عمرو بن محرز[٣]:

نزلوا إليهم والسيوفُ عصيُّهم وتذكّروا دمناً لهم وذحولا

(١) هو عمرو بن عامر بن زيد مناة الكعبي الخزرجي ، شاعر جاهلي وفارس ، كان أشرف الخزرج ، اشتهر بنسبته إلى أمه الاطنابة بنت شهاب، من بني القين من قضاعة ، وفي الرواة من يعدّه من ملوك العرب في الجاهلية ، كانت إقامته بالمدينة ، وكان على رأس الخزرج في حرب لها مع الأوس.

(٢) البيت من الخفيف، وانظر: البيان والتبيين ٣/٥٠.

(٣) البيت من الكامل، وانظر: البيان والتبيين ٣/٥٤.

فصل جامع

قال عمرو بن بحر الجاحظ: الدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم، ومعدن شريف، اتخاذ سليمان بن داود عليهما السلام العصا لخطبته وموعظته، ومقاماته، وطول صلواته وتلاوته وانتصابه. فجعلها لتلك الخصال جامعة .

وقول الله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾ [سبأ:١٤]. والمنسأة[١] هي العصا.

وقال أبو طالب حين قام بذم الرجل الذي ضرب أبا نبقة (وفي نسخة أبا نيقة) واسمه علقمة، حين تخاصما:

أَمِنْ أَجْلِ حَبْلٍ ذي زمامٍ ضربته بمِنْسَأة قد جَاءَ حَبْل وأَحْبُل

و (المحجنة[٢]): العصا المعوجة. وفي الحديث المرفوع أنه صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت يستلم الأركان بمحجنه[٣]. وفي الحديث أن أبا بكر رضي الله عنه أفاض من جُمع وهو يَخْرِش بعيرَهُ بمِحْجَنِه[٤].

والعرب تقول: "لو كان في العصا سير" للمقل والضعيف. قال أبو تمام[٥] حبيب بن أوس الطائي:

---

(١) المنسأة: العصا العظيمة تكون مع الراعي. سميت بذلك لأنه ينسأ بها الغنم، أي يزجرها ليزداد سيرها.

(٢) المحجن: بكسر الميم وفتح الجيم من حجن العود إذا لواه جمع محاجن ، العصا في طرفها انعقاف .

(٣) أخرجه «الترمذي» (٣٢٧٠)، و«ابن حبان» (٣٨٢٨).

(٤) قال الأَصمعي: الخَرْشُ أَن يضربه بمِحْجَنه ثم يجتذبُه إِليه يريد بذلك تحريكه للإسراع وهو شبيه بالخدْشِ والنخسِ.

(٥) أَبو تَمّام (١٨٨ - ٢٣١ هـ / ٨٠٣-٨٤٥م) هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أحد أمراء البيان، ولد بمدينة جاسم (من قرى حوران بسورية) ورحل إلى مصر واستقدمه المعتصم إلى بغداد فأجازه وقدمه على شعراء وقته فأقام في العراق ثم ولي بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفي بها.

يـــا لـــك مـــن همَّـــةٍ ورأى لـــو أنـــه فـــي عصـــاك ســـيرُ
ربَّ قليـــل أجـــدى كثيـــراً كـــم مطـــرٍ بـــدؤه مطيـــرُ
صـــبراً علـــى الحادثـــات صـــبراً مـــا فعـــل الله فهـــو خيـــرُ

وتقول العرب: قد أقبل فلان ولانت عصاه، إذا أصابه السواف وهو ذهاب المال وموته فرجع وليس معه إلا العصا، فإنه لا يفارقها إن كان معه إبل أو لا. قال حميد بن ثور[١]:

والنَّـوْمُ ينتـزِعُ العَصـا مـن ربِّهـا ويَلـوكُ، ثِنْـيَ لسـانه، المِنْطِيـقُ

قيل: كانت العرب تقاتل بالعصي، فلهذا قال الأعشى[٢] ميمون بت قيس ابن جندل:

=

كان أسمر، طويلاً، فصيحاً، حلو الكلام، فيه تمتمة يسيرة، يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع. وفي أخبار أبي تمام للصولي: «أنه كان أجش الصوت يصطحب راوية له حسن الصوت فينشد شعره بين يدي الخلفاء والأمراء».

في شعره قوة وجزالة، واختلف في التفضيل بينه وبين المتنبي والبحتري، له تصانيف، منها فحول الشعراء، وديوان الحماسة، ومختار أشعار القبائل، ونقائض جرير والأخطل، نُسِبَ إليه ولعله للأصمعي كما يرى الميمني.

(١) حُمَيْد بن ثَوْر بن حزن الهلالي العامريّ (توفي ٣٠ هـ /٦٥٠ م) من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. شاعر مخضرم عاش في الجاهلية، وقصى الشطر الأكبر من حياته في الإسلام. شهد معركة حنين مع المشركين، ثم أسلم بعد، وحسن إسلامه. عدّه الجمحي في الطبقة الرابعة من الإسلاميين.

قال الأصمعي: «الفصحاء من شعراء العرب أربعة في الإسلام : راعي الإبل النميريّ ، وتميم بن مُقبل ، وابن أحمر ، وحميد بن ثور». اشتُهر حُمَيد بوصْف الناقة، وركَّز كثيرًا على فكرة الصراع بين الناقة والجمل، وربما من أجل ذلك أُطلق عليه لقب حُمَيد الجمَّال، وحُمَيد الجِمَالات.

(٢) أعشى قيس (٧ هـ/٦٢٩ -٥٧٠ م) هو ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار. لقب بالأعشى لأنه كان ضعيف البصر، والأعشى في

لســـــنا نضـــــارب بالعصـــــي ي ولا نقـــــاذف بالحجـــــاره
إلا بكـــــــــلِّ مهنـــــــــدٍ عضـــب مـــن البـــيض الـــذِّكاره
قضـــــم المضـــــاربِ بـــــاترٍ يشـــفي النفـــوسَ مـــن الحـــراره

وقال جَنْدَل الطَّهَوِيّ:

حتَّـــى إذا دارت عصـــانا تجـــرى صـــاحت عصـــيُّ مـــن قنـــاً وســـدرِ

تقول العرب: "العصا من العصية والأفعى من الحية". تريد أن الأمر الكبير يحدث من الصغير.

والعرب تسمي الصغير الرأس: رأس العصا. وكان عمر بن هبيرة[1] صغير الرأس، فقال فيه سويد بن الحارث[1]:

=

اللغة هو الذي لا يرى ليلا ويقال له: أعشى قيس والأعشى الأكبر. ويكنى الأعشى: أبا بصير، تفاؤلًا. عاش عمرًا طويلًا وأدرك الإسلام ولم يسلم، عمي في أواخر عمره. مولده ووفاته في قرية منفوحة باليمامة، وفيها داره وبها قبره.

وهو من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، كان كثير الوفود على الملوك من العرب، والفرس، فكثرت الألفاظ الفارسية في شعره. غزير الشعر، يسلك فيه كل مسلك، وليس أحد ممن عرف قبله أكثر شعرًا منه. كان يغني بشعره فلقب بصنّاجة العرب، اعتبره أبو الفرج الأصفهاني، كما يقول التبريزي: أحد الأعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم، وذهب إلى أنّه تقدّم على سائرهم، ثم استدرك ليقول: ليس ذلك بمُجْمَع عليه لا فيه ولا في غيره. أما حرص المؤرخين على قولهم: أعشى بني قيس، فمردّه عدم اقتصار هذا اللقب عليه دون سواه من الجاهليين والإسلاميين، إذ أحاط هؤلاء الدارسون، وعلى رأسهم الآمدي في المؤتلف والمختلف، بعدد ملحوظ منهم، لقّبوا جميعًا بالأعشى، لعل أبرزهم بعد شاعرنا- أعشى باهلة، عامر ابن الحارث بن رباح، وأعشى بكر بن وائل، وأعشى بني ثعلبة، ربيعة بن يحيى، وأعشى بني ربيعة، عبد الله بن خارجة، وأعشى همدان، وأعشى بني سليم وهو من فحول الشعراء في الجاهلية. وسئل يونس عن أشعر الناس فقال: «امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير بن أبي سلمى إذا رغب، والأعشى إذا طرب».

(١) عمر بن هبيرة بن معاوية بن سكين الأمير أبو المثنى الفزاري هو أمير عراق العرب وعراق العجم وابنه يزيد بن عمر بن هبيرة المعروف بيزيد بن هبيرة، ولي إمارة البحر عند حصار القسطنطينية الثاني تحت قيادة مسلمة بن عبد الملك، ثم عينه الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك أميرا على العراق

مــن مبلــغٌ رأسَ العصــا أن بيننــا ضــغائن لا تنســى وإن قــدم الــدهرُ

وقال آخر[٢]:

مــن مبلــغٌ رأسَ العصــا أن بيننــا ضــغائن لا تنســى وإن هــي ســلَّتِ

رضــيتَ لقــيسٍ بالقليــل ولــم تكــن أخــاً راضــياً إنْ صــدر نعلــك زلَّــت

أي لم تكن قيس ترضى لك بالقليل.

وقال أبو العتاهية[٣] في والبة بن الحباب[٤] وقومه وكانت رءوسهم صغاراً[٥]:

=

سنة ١٠٣ هجري، فلما ولى هشام بن عبد الملك دار الخلافة الإسلامية في دمشق عزله وولى خالد بن عبد الله القسري.

هو أبو المثنى عمر بن هبيرة بن معية بن سكين بن خديج بن بغيض بن مالك بن سعد بن عدي بن فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وأم عمر بن هبيرة هي يسرة بنت حسان بن شريك بن نعيم بن ثعلبة العدوي بن عبد مناة.

انظر: تاريخ الإسلام للإمام الذهبي الجزء السابع الصفحة ٢٠٧.

(١) سُوَيْد بن الحَارِث الأَزْدِيّ. أَورده أَبو نُعَيم في غير كتاب المَعْرِفَةِ.

(٢) البيتان من الطويل، وهما بلا نسبة في أساس البلاغة ص ٣٠٤ (عصي).

(٣) هو إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني ، أبو إسحاق، ولد في عين التمر سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م، ثم أنتقل إلى الكوفة، كان بائعا للجرار، مال إلى العلم والأدب ونظم الشعر حتى نبغ فيه، ثم انتقل إلى بغداد، وأتصل بالخلفاء، فمدح الخليفة المهدي والهادي وهارون الرشيد.

أغر مكثر، سريع الخاطر، في شعره إبداع، يعد من مقدمي المولدين، من طبقة بشار بن برد وأبي نواس وأمثالهما. كان يجيد القول في الزهد والمديح وأكثر أنواع الشعر في عصره.

وأبو العتاهية كنية غلبت عليه لما عرف به في شبابه من مجون ولكنه كف عن حياة اللهو والمجون، ومال إلى التنسك والزهد، وانصرف عن ملذات الدنيا والحياة، وشغل بخواطر الموت، ودعا الناس إلى التزوّد من دار الفناء إلى دار البقاء وكان في بدء أمره يبيع الجرار ثم اتصل بالخلفاء وعلت مكانته عندهم. وهجر الشعر مدة، فبلغ ذلك الخليفة العباسي هارون الرشيد، فسجنه ثم أحضره إليه وهدده بالقتل إن لم يقل الشعر، فعاد إلى نظمه.

(٤) هو أبو أسامة والبة بن الحباب الأسدي الكوفي، من بني نصر بن قعين، من أسد بن خزيمة. يدور شعره حول الخمرة والمجون والغزل بالغلمان، وهو أستاذ أبي نواس.

(٥) البيت من الطويل، وانظر: البيان والتبيين ٣/٤١.

رءوس عصيٍّ كن في عود أثلةٍ لها قادحٌ يفري وآخر مخربُ

وفي حديث زواجِ رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وقد تكلم أبو طالب وذكر رغبته فيها فقال قائل منهم: "ابن أخيك الفحل لا يقرع بالعصا أنفه". وذلك أن الفحل اللئيم إذا أراد الضراب في الإبل ضربوا أنفه بالعصا.

وفي خطبة الحجاج: "والله لأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل". وذلك أن الأشجار تعصب أغصانها لتجتمع، ثم تخبط بالعصا ليسقط ورقها وهشيم العيدان لتأكله الماشية.

قال المؤلف أطال الله بقاءه: زرت قبر يحيى بن زكريا عليهما السلام بقرية يقال لها سبسطية من أعمال نابلس، فلما صليت خرجت إلى ساحة بين يدي الموضع الذي فيه القبر محوط عليها، وإذا باب مردود ففتحته ودخلت، وإذا كنيسة فيها نحو من عشرة شيوخ رءوسهم مكشوفة كأنها القطن المندوف، وقد استقبلوا الشرق وفي صدورهم عصي في رءوسها عوارض معوجة على قدر صدر رجل، وهم معتمدون عليها، وشيخ بين يديهم يقرأ، فرأيت منظراً يرق له القلب، وساءني وآسفني إذ لم أر في المسلمين من هو على مثل اجتهادهم. فمضت على ذلك مدة فقال لي يوماً معين الدين أنر رحمه الله وأنا وهو نسير عند دار الطواويس: اشتهى أنزل أزور المشايخ. قلت: الأمر كذلك. فنزلنا ومشينا إلى منزل عرضي طويل، فدخلناه وأنا أظن أن ما فيه أحد، وإذا فيه نحو من مائة سجادة وعلى كل سجادة رجل من الصوفية عليهم السكينة، والخشوع عليهم ظاهر. فسرني ما رأيت منهم، وحمدت الله عز وجل، إذ رأيت في المسلمين من هو أكثر اجتهاداً من أولئك القسوس، ولم أكن قبل ذلك رأيت الصوفية في دارهم، ولا عرفت طرقهم.

ويقال: "يوم أطول من ظل القناة، وأحر من دمع المقلات" قال عبد الله بن الدمينة[١][٢]:

وَيَوْمٍ كظِلِّ الرُّمْحِ قَصَّرَ طُولَه دَمُ الزِّقِّ عَنَّا واصْطفاقُ المَزاهِرِ

ويقال رجل كالقناة، وفرس كالقناة. قال عروة بن الورد[٣][٤]:

---

(١) عبد الله بن عبيد الله ابن الدمينة الأكلبي نسبة هو عبد الله بن عبيد الله أحد بني عامر بن تيم اللات بن مبشر بن أكلب شاعر بدوي من قبيلة أكلب من العصر الأموي، وقد يقال الخثعمي نسبةً للحلف القبلي فقط، ، وينادى تلقيبا بأمه الدمينة بنت حذيفة من بني سلول وكنيته "أبا السري".

شاعر وفارس التحق بالجيش، يقال أنه كان جميل الخلقة، فصيح اللسان، شديد الغيَرة، من شعراء الغزل العفيف العذري، وكل شعره يتغنى بنجد وصباها ونسائمها العليلة، وفي شعره مايدل على فصاحته وفطرته العذرية. توفي مغدوراً جنوب مكة عام ١٣٠ هـ.

(٢) البيت من الطويل، وهو لابن الطثرية في ديوانه ص ٨١؛ ولسان العرب ١٠/ ٢٠٥ (صفق)؛ وأساس البلاغة (رمح).

(٣) عروة بن الورد العبسي (توفي ١٥ ق.هـ/٦٠٧ م)، شاعر من عبس من شعراء الجاهلية وفارس من فرسانها وصعلوك من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد. كان يسرق ليطعم الفقراء ويحسن إليهم. وكان يلقب عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ولم يكن لهم معاش ولا مغزى.

قال معاوية بن أبي سفيان: «لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم». وقال الحطيئة في جوابه على سؤال عمر بن الخطاب كيف كانت حروبكم؟ قال: «كنا نأتم في الحرب بشعره». قال عبد الملك بن مروان: «من قال إن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد».

وفي الأغاني من خبره: «كان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سني شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف، وكان عروة بن الورد يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته في الشدة ثم يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف ويكسبهم، ومن قوي منهم-إما مريض يبرأ من مرضه، أو ضعيف تثوب قوته- خرج به معه فأغار، وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيباً، حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله وقسم له نصيبه من غنيمةٍ إن كانوا غنموها، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى، فلذلك سُمّي عروة الصعاليك»

(٤) البيتان من الطويل، وهما لحاتم الطائي في ديوانه (ص ٢٨).

متى ما يجيءْ يوماً إلى المال وارثي يجدُ جمعَ كفٍّ غيرِ ملأى ولا صفرِ
يجـد فرسـاً مثـل القنـاةِ وصـارماً حسـاماً إذا مـا هـزّ لـم يـرض بـالهبر

ويقال للرجل إذا لك يكن معه عصا: باهل؛ وناقة باهل إذا كانت بغير صرار.

فصل
في بديع ما جاء في عصا الكِبَر[1]

وقال المولى مؤيد الدولة مؤلف هذا الكتاب أطال الله بقاءه في المعنى:

أسفي على عصر الشباب تصرَّمت ... أيامه لا بل على أيامي
لم أبكه أسفاً على مرح الصِّبا ... ووصالِ غانيةٍ وشربِ مدام
لكن على جلدي وخوضي معركاً ... يرتاع فيه الموتُ من إقدامي
بيدي حسامٌ كلّما جرّدته ... يومَ الوغى أغمدته في الهام

(١) أول مراتب العصا المخصرة: وهو ما يأخذه الإنسان بيده تعلُّلًا به، فإذا طالت قليلًا واستظهر بها الراعي والأعرج والشيخ فهي العصا، فإذا استظهر بها المريض والضعيف فهي المنسأة، فإذا كانت في طرفها عقافة فهي المحجن، فإذا طالت فهي الهراوة، فإذا غلظت فهي القحزنة والمرزبة (ويقال: إنها من حديد)، فإذا زادت على الهراوة وفيها زج فهي العنزة، فإذا كان فيها سنان صغير فهي العكازة، فإذا طالت شيئًا وفيها سنان دقيق فهي نيزك ومطرد، فإذا زاد طولها وفيها سنان عريض فهي آلة وحربة، فإذا كانت مستويةً نبتت كذلك لا تحتاج إلى تثقيف فهي صعدة، فإذا اجتمع فيها الطول والسنان فهي القناة والصعدة والرمح.

وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم عنزة تركز له فيصلي إليها؛ عن عون بن أبي جحيفة، قال: سمِعت أبي قال: "خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة، فأتي بوضوء فتوضأ فصلى بنا الظهر والعصر وبين يديه عنزة، والمرأة والحمار يمرون من ورائها".

قال القرطبي: والإجماع منعقد على أن الخطيب يخطب متوكئًا على سيف أو عصا، فالعصا مأخوذة من أصل كريم ومعدن شريف، ولا ينكرها إلا جاهل، وقد جمع الله لموسى عليه السلام في عصاه من البراهين العظام والآيات الجسام ما آمن به السحرة المعاندون، واتخذها سليمان عليه السلام لخطبته وموعظته وطول صلاته، وكان ابن مسعود رضي الله عنه صاحب عصا النبي صلى الله عليه وسلم وعنزته، وكان يخطب بالقضيب، وكفى بذلك فضلًا على شرف حال العصا، وعلى ذلك الخلفاء وكبراء الخطباء، وعادة العرب العرباء الفصحاء اللسن البلغاء أخذ المخصرة والعصا والاعتماد عليها عند الكلام وفي المحافل والخطب، وأنكرت الشعوبية على خطباء العرب أخذ المخصرة والإشارة بها إلى المعاني، والشعوبية تبغض العرب وتفضل العجم.

انظر: فتح الباري ١١/ ٤٩٦. وتفسير القرطبي ١١/ ١٨٨.

ولصدرِ معتدلِ الكعوب حطمته فـي صـدر كـبشِ كتيبـةٍ قمقـام
ونـزالِ فرسـانِ الهيـاج كلُّهـم فـرقٌ لهـول تقحُّمـي ومقـامي
ولقتليَ الأسدَ الضَّـواريَ نحطها كالرَّعـد قعقـعَ فـي متـون غمـام
تقلـى إذا لاقيتهـا أسـداً لـه بـأسٌ يبـيح بـه حمـى الأجسـام
لـو أنَّ عـينَ أبـي زبيـدٍ عاينـتْ فتكاتـهِ لأقـرَّ بالإحجـام
فحملـتُ مـن بعـد الثَّمـانينَ العصـا متيقِّنـا إنـذارها لحمـامي

وقال أيضاً أطال الله بقاءه في المعنى:

مع الثمانينَ عاثَ الضَّعفُ في جلدي وساءني ضعفُ رجلي واضطرابُ يدي
إذا كتبـت فخطِّـي جـدُّ مضـطربٍ كخـطِّ مـرتعشِ الكفـينِ مرتعـدِ
وإن مشيت وفـي كفِّـي العصـا ثقلـت رجلي كـأني أخـوض الوحـل فـي الجلـد
فاعجبْ لضعف يدي عن حملها قلماً مـن بعـد حطـم القنـا فـي لبَّـة الأسـد
فقـلْ لمـن يتمنّـى طـولَ مدّتـه هـذي عواقـبُ طـول العمـر والمـددِ

قال المؤلف أطال الله بقاءه: دخل علي بالموصل سنة ست وعشرين وخمسمائة رجل من أهل الموصل نصراني يعرف بابن تدرس، وهو شيخ كبير يمشي على عصا ليسلم علي، وأنشدني والعصا بيده قبل السلام:

أحمـدُ الله إذْ سـلمتُ إلـى أن صـرت أمشـي وفـي يـدي عكَّـازة
نعمـةٌ ليتنـي بقيـت عليهـا حـذراً أن أشـال فـوق جنـازة

وقال آخر:

عصـيت العصـا شـرخ شـبيبتي فلما انقضى شرخ الشباب أطعتها
أحمِّلها ثقلي ويحسب كـلُّ مـن رآهـا بكفّـي أننـي قـد حملتهـا

وقال المؤلف رحمه الله:

حملتْ ثقليَ في السهل العصا ونبتْ بي حين حاولت الحزونا
وإذا رجليَ خانتني فلا لوم عندي للعصا في أن تخونا

قال المؤلف: وأنشدني العميد أبو الحسن علي بن أبي الآمال بالموصل في سنة ست وعشرين وخمسمائة، ولم يسم القائل:

مازلت أركب شاكلاتِ الربرب حتَّى مشيت على العصا كالأحدب
وتزلُّ رجلي كلَّما ثبَّتها فكأنني أمشي الوحى في الطُّحلب
أأزيد ثالثة وأنقص عن مدى مشى اثنتين لقد أتيتُ بمعجب
والليثُ لو بلغت سنوه سنَّي أو قاربنها، أمسى فريسةَ ثعلب

قال: وأنشدني القاضي الرشيد أحمد بن الزبير بمصر تسع وثلاثين وخمسمائة، للشاعر المعروف بابن المكربل:

تقوَّس بعد طول العمر ظهري وداستني الليالي أيَّ دوسِ
فأمشي والعصا تمشي أمامي كأن قوامها وترٌ لقوس

قال المؤلف رحمه الله: أنشدني مجد الدين أبو عمران موسى ابن الخطيب قدوة الشريعة يحيى الحصكفي رحمه الله، بظاهر ميافارقين في شعبان سنة إحدى وستين وخمسمائة:

كبرتُ إلى أن صرتُ أمشي على العصا لتجبر ما أعرى الزَّمان من الوهن
يقولون ما تشكي وهل من شكاية أشدَّ على الإنسانِ من كبر السنِّ

قال: وأنشدني أيضاً لبعضهم:

حملتُ العصا لا الضَّعف أوجب حملها عليَّ ولا أنِّي تحنَّيتُ منْ كبرْ
ولكنني ألزمت نفسيَ حملها لأعلمها أن المقيم على سفرْ

قال: وأنشدني بها الموفق نصر بن سلطان لبعضهم:

كل أمرٍ إذا تفكرت فيه وتأملته تراه طريفا

كنت أمشي على اثنتين قويا صرت أمشي على ثلاث ضعيفا

قال المؤلف رحمه الله:

إذا تقوّس ظهر المرء من كبر فعاد كالقوس يمشي والعصا وترُ

فالموت أروح شيء يستريح به والعيش فيه له التعذيب والضرر

وقال أيضاً في المعنى:

إذا عاد ظهر المرء كالقوس والعصا له حين يمشي وهي تقدمه وترْ

ومل تكاليف الحياة وطولها وأضعفه من بعد قوّته الكبر

فإن له في الموت أعظمَ راحةٍ وأمناً من الموت الذي كان ينتظر

وقال المؤلف رحمه الله:

حناني الدهر وأف نتني الليالي والغيرْ

فصرتُ كالقوس ومن عصاي للقوس وتر

أهدج في مشي وفي خطوي فتورٌ وقصر

كأنني مقيدٌ وإنما القيدُ الكبر

والعمر مثل الماء، في آخره يأتي الكدرْ

وأنشدني الأمير السيد شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين العلوي الحسيني، بالموصل في شوال سنة خمس وستين وخمسمائة، لبعض المغاربة:

ولي عصاً في طريق السَّير أحمدها بها أقدِّم في تأخيرها قدمي

كأنها وهي في كفِّي أهشُّ بها على ثمانين عاماً لا على غنمي

كأنني قوسُ رامٍ وهي لي وترٌ أرمي عليها رماء الشَّيب والهرم

قال المصنف رحمه الله: وحدثني الشريف الإمام شمس الدين أبو المجد علي ابن علي بن الناصر للحق الحسيني الحنفي بالموصل، في شهر رمضان سنة خمس وستين وخمسمائة قال: خرج خواجا بزرك وفي يده عصا، وهو ينشد هذين البيتين:

بعد الثمانين ليس قوه لهفى على قوّة الصُّبوَّه
كأنني والعصا بكفِّي موسى ولكن بلا نبوّه

قال: وأنشدني أيضاً قال: أنشدني والدي أبو الحسن علي قال: أنشدني والدي أبو طالب يحيى قال: أنشدني والدي الأمير أبو شجاع وقد علت سنه وحمل العصا:

أهدى لي الدهرُ رجلاً منه ثالثةً ما كان أحسنني أمشي بثنتينِ
أمشي بها وهي تمشي بي معاونةً ما كان أحسنني أمسي بلا عونِ
هديَّة كنت آباها فصيَّرها إليَّ بالرغم مني قرَّةَ العينِ
بانَ الشباب وجاء الشَّيب يصحبه يا ليتها صحبةٌ تبقى لا بينِ

وقال المؤلف رحمه الله:

ويحَ السِّنينَ ومرِّها ماذا بنا هي فاعله
جعلت عصايَ ولم تكن شغلي لكفِّيَ شاغله
محمولة هي في المجا ز وفي الحقيقة حامله
والعمرُ ألجأني إليـ ـها والقوى المتخاذله
والنَّفس عما سوف تلـ ـقى حين تسلمُ غافله
وجميعُ مكروهاتها في العيشة المتطاولهْ

قال المؤلف رحمه الله:

قصّر خطوي وحنى صعدتي مزورُّ دهرٍ خائن خابلِ
وصار كفّي مالكاً للعصا من بعد حمل الأسمر الذابل
أمشي بضعفٍ وانحناء على عصايَ مسيَ الصائد الخاتل
كأنَّني لم أمش يوم الوغى إلى نزال البطل الباسل
ولم أشقَّ الجيش لا أختشي من الردى كالقدرِ النازل

فـانظرْ إلـى مـا فعـل العمـرُ بـي ... مــن طولــه لــم أحــظ بالطَّائــل
يــا حســرتا إنِّــي غــداً ميّــت ... علــى فراشــي ميــتَ الخامــل
هـلّا أتـاني المـوتُ يـومَ الـوغى ... بــين القنــا والأســلِ الناهــلِ

وقال أيضاً:

نظــرتْ إلــى ذي شــيبة متهــدِّمٍ ... أفنــاهُ مــا أفنــى مــن الأعــوام
يمشي وتقدمه العصا وقد انحنى ... فكأنهــا وتــرٌ لقــوس الرامــي
ورأتْ سـماتِ الأريحيَّـة والنَّـدى ... ودلائــلَ المعــروف والإقــدام
واستخبرتْ عنِّي فقلت له امرؤ ... نــائي المــواطن مــن كــرام الشَّــام
نبـت الـديارُ بـه وضـاق فسيحها ... عنــه ففارقهــا بغيــر مــلام
قالت من أيِّ الناسِ أنت فقلت من ... أولاد منقــذَ فــي ذرًى وســنام
مـن معشـر أبـداً تـروح رمـاحهم ... بــدم العــدى مخضــوبة الأعــلام
تحمـي الـبلادَ سيوفهم وتبيح مـا ... تحميــه دونهــم ســيوفُ الحــامي
النــازلين بكــلِّ ثغــر خــائف ... والآمنــين معــرَّةَ الجــرَّام
وإذا أنــاخ الســائلون بجــوِّهم ... عــادوا ثقــالَ الظَّهــر بالإنعــام
كـم فـيهم عنـد الحقـوق إذا عـرتْ ... مــن بــاذلٍ متبــرِّع بسَّــام
تغنـي يـداه إذا همـا همتـا نـدًى ... في المحل عن صوب الغمام الهامي
يتهلَّلــون طلاقــةً ويخــافهم ... لســطاهمُ الآســادُ فــي الآجــام
قالـت فـأين هـمُ فقلـتُ أبـادهمْ ... دهــرٌ وهــل بــاقٍ علــى الأيــام
ووددت لـو نـاهلتّهم كـأسَ الـردى ... ووردتُ قــبلهمُ حيــاض حمــامي
فحيــاةُ مثلــي بعــد عــزّ بــاذخ ... ومعاشــرٍ غلــبٍ ومــالٍ نــام
ونفــاذِ أمــر لا يــردّ، يطيعــه ... فيمــا قضــى العاصــي مــن الأقــوام

لأشدُّ من غصص الحمام وراحتي بالموت غايةُ منيتي ومرامي
فبكت بزفرة موجع لو صادفت حجراً لذاب من الزَّفير الحامي

وقال أيضاً:

حمَّلتُ ثقلي بعد ما شبتُ العصا فتحملته تحمُّل المتكارهِ
ومشت به مشيَ الحسير بوقره لا يستقل مقيَّدا بعثاره
ما آدها ثقلي ولكن ثقل ما أبقى الشباب عليَّ من أوزاره
ورجايَ معقودٌ بمن أعطى أخا السَّبعين عهدة عنقه من ثاره

وقال أيضاً:

غرضتُ من الحياة فكلُّ عمري تصرَّم بالحوادث والخطوب
فما ظفرت يدي بسرورِ يومٍ بغير همومِ حادثةٍ مشوبِ
صباً كالسُّكر أعقبه شباب تقضّي بالوقائع والحروب
ووافى بعده شيبٌ بغيض فلا سقياً لأيام المشيبِ
أراني طيب لذّاتي ولهوى يعدُّ من الجهالة والعيوبِ
وأدّاني إلى كبرٍ وضعف وأدواء خفينَ على الطبيب
إذا رمتُ النُّهوض ظننتُ أنّي حملت ذرى الشّناخب من عسيب
فإن أنا قمت بعد الجهد أمشي فمشي حين أعجل كالدَّبيب
تسيِّرني العصا هوناً وخلفي مسيرُ الموت كالرِّيح الهبوب
وأفنى الموتُ إخواني وقومي وأترابي فها أنا كالغريبِ
وفيما قد لقيت ردًى وموتٌ ولكن ليس قلبي كالقلوب

وقال أيضاً:

إنْ ضعفتْ عن حمل ثقلي رجلي ورابني عثارها في السهل

أمشي كما يمشي الوجي في الوحلِ مشــيَ الأســير موثقــاً بالكبــل
فللعصـــا عنـــديَ عـــذرُ المبلـــي إن عجزت أو ضعفت عن حملي

وقال أيضاً وكتب بها في كتاب إلى والده الأمير عضد الدين أبي الفوارس مرهف إلى مصر يطلب منه عصاً من آبنوس:

أريــد عصــاً مــن آبنــوسٍ تقلُّنــي فإن الثّمانين استعادت قوى رجلي
ولــو بعصــا موســى اتَّقيــتُ لآدهــا علــى مــا بهــا مــن قــوَّةٍ حملهــا ثقلي
ولكـــن تمنَّينـــا الرّجـــاءَ بباطـــلٍ وكم قدرُ ما ترخي المنايا وكم تملي
إذا بلــغَ المــرءُ الثمــانين فــالرّدى يناديــه بالتَّرحــال مــن جانــب الرَّحــلِ

وقال أيضاً:

لمــا بلغــت مــن الحيــاة إلــى مــدى قــد كنــت أهــواهُ تمنَّيــت الــرّدى
لــم يبــقِ طــولُ العمــر منــي منَّــةً ألقــي بهــا صــرفَ الزّمــانِ إذا اعتــدى
ضعفت قوايَ وخانني الثِّقتانِ من بصري وسمعي حين شارفت المدى
فــإذا نهضــتُ حسبت أنّــي حامــلٌ جـــبلاً وأمشـــي إن مشـــيت مقيَّـــداً
وأدبُّ فــي كفِّــي العصــا وعهــدتها فــي الحــرب تحمــل أســمراً ومهنَّــدا
وأبيــت فــي لــين المهــاد مســهَّداً قلقـــاً كـــأنّنيَ افترشـــت الجلمـــدا
والمــرءُ يــنكس فــي الحيــاةِ وبينمــا بلــغ الكمــالَ وتــمَّ عــاد كمــا بــدا

وقال أيضاً:

ألــوم الــرَّدى كــم خضــته متعرِّضــا لــه وهــو عنِّــي معــرضٌ متجنِّــبُ
وكــم أخــذت منِّي السُّيوفُ مآخــذ ال حمـــامِ ولكـــنَّ القضـــاءَ مغيَّـــبُ
إلــى أن تجــاوزتُ الثمــانينَ وانقضــت بلهنيــةُ العــيش الــذي فيــه يرغــب
وأصبحت أستهدي العصا فتميلُ بي لضعفي عن قصدي كأنّيَ أنكب

وقال أيضاً:

قــد كــان كفِّــي مألفــاً لمهنَّــدِ تعــري القلــوبُ لــه وتفــرى الهــامُ

قوله: "تعرى" من العرواء، وهي الحمى.

ولأســمرٍ لــدنِ الكعــوب وحــازه حيــث اســتمرَّ الفكــرُ والأوهــامُ

يتزايــل الأبطــال عنِّــي مثــلَ مــا نفــرت مــن الأســد الهصــورِ نعــامُ

فرجعتُ أحملُ بعد سبعينَ العصا فاعجــبْ لمــا تــأتي بــه الأيّــام

وإذا الحمــامُ أبــى معالجــة الفتــى فحياتـــــه لا تكـــــذبنَّ حمـــــامُ

قال مؤيد الدولة مؤلف هذا الكتاب، رحمه الله:

هٰذا آخِرُ ما قُلْتُهُ وجَمَعْتُهُ، وأَلَّفْتُهُ وصَنَّفْتُهُ، في ذِكْرِ العِصا.

وبِهِ يَخْتِمُ الكِتابَ، بِعَوْنِ المَلِكِ الوَهّابِ.

فهرس

مقدمة التحقيق	٥
الأمير الفارس والأديب البارع أسامة بن منقذ	١٠
ذكر العصا في القرآن والسنة وأقوال العرب	١٥
العصا لغة واصطلاحًا:	١٥
العصا في القرآن الكريم:	١٥
أسماء العصا وأنواعها:	١٦
العصا ومآربها الأخرى:	٢٠
أما في الشريعة الإسلامية:	٢٢
العصا في المنام:	٢٣
وذكرت العصا عند النبي صل الله عليه وآله وسلم:	٢٣
ما قيل من الشعر في العصا:	٢٤
وذكرت العرب العصا في أقوالها وأمثالها فقالوا:	٢٥
عملنا في الكتاب	٢٧
مقدمة المصنف	٢٩
فصل في تسمية العصا	٣٢
فصل في قرع العصا	٣٨
فصل	٥٠
العصا فرس جذيمة الأبرش	٥٣

فصل ٥٤
فصل ٥٥
فصل جامع ٥٨
فصل في بديع ما جاء في عصا الكِبَر ٦٥
الفهرس ٧٤

تم بحمد الله